محمود شلبي

حياة داوود

دار الجيل
بيروت

الطبعـــة الثانيـــة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الجيل

ص.ب. : ٨٧٣٧ بيروت

هاتف : ٢٦٦١٥٨

بيروت ــ لبنان

الاهـــداء

اللهـــم . . . منـــك . . . وإليـــك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدِّمَة

أحمد الله ... حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ...

وأصلي ... وأسلم ... على سيد النبيين وسيد المرسلين ...

وبعد ...

ماذا أقول ... وماذا أستطيع أن اقول ... في نبي الله ... داود ... عليه السلام ...

ماذا أقول ... في صاحب وسام « **وآتينا داوود زبورا** » ؟ !

ماذا أقول ... في صـــاحب ... تاج « **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق** » ؟ !

ماذ أقول . . . في صاحب لؤلؤة « **وشددنا ملكه وآتينـــاه الحكمة وفصل الخطاب** » ؟ !

أو ماذا أقول . . . فيمن ناداه مولاه « **يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض** » ؟ !

داوود ؟ ! !

النبي ... الملك ... موجُه شمشمان ..، نوره ... بحر زاخر ... اقرأ ... واستمتع ... وقُل ... « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » .

١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

محمود شلبي

وكلمة ... الله ...

هي العليا ...؟!

اعـــلم . . .

ان سبيلنا في الكتابة . . . عن الأنبياء . . . ان نؤسسها على القرآن العظيم . . .

فما اعتمده اعتمدناه . . . لأن الأنبياء سفراء الله . . . إلى الناس . . . ولا يعلمهم حق العلم . . . إلا الله . . . « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » . . .

ولمـا كان القرآن العظيم . . . هو أصدق مرجع على الاطلاق في الأرض . . .

« **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » . . .

لزم أن يكون هو العمدة . . . في الكتابة عن حياة الأنبياء . . .

لأن الأنبياء . . . صادقون صديقون . . .

حياتهم صدق . . . وكلامهم صدق . . . وأحوالهم صدق . . . وظاهرهم وباطنهم صدق . . .

فتحتم أن يكون المرجع الأول في الكتابة عنهم . . . أصدق المراجع . . . وأصدق الكلام . . . وأصدق الحديث . . . وذلكم هـــو القرآن العظيم . . .

« **ومن أصدق من الله حديثاً** » ؟ !

ولو اتبع الناس هذا السبيل . . . ما وقع . . . ما وقع في قصص الأنبياء . . . من أساطير . . . نسبت اليهم . . . صلى الله عليهم . . . زوراً وبهتاناً !!!

ويتلقفهـــا الجاهلون . . . ويغـرهم تسطيرها في بعض الكتب . . . فيزيدهم تصديقاً !!!

كلا ... انهم أنبياء الله ... أحق من يتحدث عنهم ... كتاب الله ! !

فما جاء فيه عن نبي من الأنبياء ... تلقيناه بالتعظيم والتمجيد ... وسارعنا إلى تصديقه ... وفصلناه تفصيلا ...

عملا بقوله تعالى « **وكلمة الله هي العليا** » ...

ثم يأتي من بعدها ... ما صح ... عن النبي صـــلى الله عليه وسلم ... عن الأنبياء ...

لأن أولى الناس بالحديث عن الأنبياء... نبي الأنبياء... وإمام النبيين... وخاتم النبيين ...

ولا يفهم الرجل إلا من كان في مستواه ... أو هو أعلى ...

والنبي صلى الله عليه وسلم ... نبي مثلهم ...

ثم هو أعلى ...

فإذا تحدث عنهم ... تحدث عن أمثاله ... وأشباهه ...

ولمـا كان حديثه صدقاً ... « **إن هو إلا وحي يوحى** » .

ومقامه أعلى مقام ...

جاء حديثه عن اخوته الأنبياء ... أصـــدق حديث عنهم ... وأعلى حديث ...

فلزم من كل ذلك ... أن تكون أحاديثه صلى الله عليه وسلم ... عن الأنبياء هي المرجع الثاني .... بعد كتاب الله العزيز ...

ثم يأتي من بعد ذلك... ما استقام واعتدل... من أقوال الأعلام والعلماء... رضي الله عنهم وأرضاهم ...

ثم شيء آخر ... يلزم الإشارة اليه ...

ان حياة الأنبياء ... ليست حياة وقائع وحوادث ... كما هي حياة سائر الناس ... وإنما هي في المقام الأول ... حياة أنوار ...

اعني أن أقول ... قد لا تجد في حياة نبي من الأنبياء ما يبهرك من الحوادث العظام ... كما تجد ذلك في حياة بطل من أبطال التاريخ ...

فيتعجب الجاهلون : كيف هذا ؟!

فإنك قد تجد في حيـــاة نابليون – مثلاً – من الوقائع التاريخية الضخمة ما يبهرك ...

أكثر مما تجد – مثلاً – في حيـــاة أيوب – عليه السلام – من الوقائع التاريخية ...

وسبب ذلك ان حياة الأنبياء ... انما هي أنوار ...

والنور ... نور في ذاته ... يتلألأ ... انعكس على الأشياء أو لم ينعكس ...

فعظمة أيوب – عليه السلام – عظمة ذاتية ... عظمة شخصية عليا ...

نور ذاتي ...

ليس في حاجة إلى كثير وقائع ... كي يظهر ويتشعشع ...

فالذين ينظرون في حياة الأنبياء ... على أنها تاريخ أشخاص ... لهم وقائع وحوادث معينة ...

إنما ينظرون إلى أفق محـــدود ... يحجبهم عن الأفق الأعلى ... من حقائق الأنبياء ...

وهذا أخطر خطأ يقع فيه بعض الناس ...

خطأ يحرمهم ... من أبهج ... وأجمل ... وأرقى ... وأسمى ... وأعلى ... وأغلى ... ما في الأنبياء ...

إنما مثلهم كمثل رجل ... نظر الى قطرة من بحر ... ثم صـــاح : ها هو

البحر ... إني قد رأيت البحر !!!

وما رأى ... وما علم عن البحر شيئاً !!!

نحن في حاجة شديدة إلى دراسة الأنبياء ... على أنهم أنوار ... لا على أنهم تاريخ ووقائع ...

نحن في حاجة إلى رؤية البحر ... ولسنا في حاجة إلى أخذ قطرة منه ... ونحسبها بحراً !!!

ولا نعني بذلك إهدار الوقائع التاريخية من حياة الأنبياء ...

كلا ... وإنما نعني ... إضافة أفق أعلى ... إلى الأفق الأدنى ... أفق الوقائع ...

ان الأنبياء حقائق ... أعلى حقائق ...

ان الأنبياء ... بحار ... أوسع بحار ... تموج بموج كالجبال ...

ان الأنبياء ... أمواج ... أعلى أمواج ...

لكل نبي موجته الخاصة ...

ان الأنبياء ... أنوار ... لكل نبي نوره ...

فمن الظلم أشد الظلم ... لنفسك ... أن تحصرها في سجن الوقائع ... وأنت تنظر إلى حياة الأنبياء ...

ولكن انظر بعين قلبك تبصر من أمورهم عجباً !!!

ابعث ... لنا ...

ملكا ...

جمـــال ...

الأنبياء ... ليس كمثله جمال !!!

وأسلوب اختيارهم ... ليس كمثله أسلوب ...

ذلك ان الذي يختار هو الله ... الذي ليس كمثل اختياره اختيار ...

وأن الذين يختارهم ... ليس مثلهم من أحد في الأرض ولا في السماء ...

و « **قل الحمد لله ...**

« **وسلام على عباده الذين اصطفى** » !!!

وسوف ترى ... بإذن الله ... كيف كان اختيار داوود ...

وكيف اصطفاه ربه ... وربّاه ...

وكيف كان ... هو ... وليّه ومولاه ؟!!

ولنسمع الآن ... إلى كلام الله العزيز ... يقص علينا القصص الحق ...

« **ألم تر إلى الملأ** »

ألم تعلم ... ألم يأتكم نبأ هـــذه القصة التاريخية ... إذ اجتمع الأشراف والوجهاء ... وأولو الحول والطول ...

« **من بني اسرائيل** »

من شعب بني إسرائيل ...

« **من بعد موسى** » من بعد موسى بنحو أربعمائة سنة ...

ذاقوا فيها النصر تارة على أعدائهم من حولهم ...

والهزيمة تارة ... على أيدي جيرانهم ...

ثم انتهوا إلى التمزق والهوان ... إذ غلب عليهم عدوهم ... وسلب منهم تابوت الرب ... الذي كانوا يستنصرون به على أعدائهم ...

« إذ قالوا لنبي لهم »

إذ ألحوا وكرروا القول ... وكرروا المطالبة من نبي لهم ...

وهو صمويل ... عليه السلام ... وقد تقدمت به السن ... وخافوا أن يتبدد شملهم من بعده ...

« ابعث لنا مَلِكاً » اختر لنـــا بمعرفتك ملكاً ... كما للأمم من حولنا ملوك ... يسوسون أمرهم ... ويقودون جيوشهم ...

ابعث لنا قائد ثورة ...

فإن أحوالنا ... لا بد لها من قائد ثائر ... ينفخ الروح فينا ... ويقودنا إلى أعدائنا ... ونسترد عزتنا التي ضاعت وتبددت ...

هذا مطلب الشعب ...

وهي ثورة وفورة ...

ولكن الأنبياء ... يدركون من حقـــائق النفوس ... ما لا تدرك الجماهير الثائرة ...

« نقاتل في سبيل الله »

يقودنا جميعاً ... إلى الحرب ضـــد أعدائنا ... لتكون كلمة الله هي العليا ...

كلام جميل !!!

يخدع الكثير ... ولكنه لا يخدع الأنبياء ...

فانظر إلى نبي الله صمويل ... ماذا واجه به هؤلاء الثائرين ؟ !

« **قال** » صمويل ... عليه السلام ... وأرسل شعاعاً من اشعاعات النبوة ...

« **هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا** » ؟ ! ... صدمة أليمة للشعب ... لقد كان المنتظر أن يشجعهم ويركب موجة الحماس معهم ...

ولكن ... لا ... إن الأنبياء على علم علىّ ... لا يسمح لهم بالمجاملة والمداهنة ...

فأعلنها صمويل اليهم ... ان الله إذا فرض عليهم قتال أعدائهم ... فإن أكثر هؤلاء الذين يتصايحون الآن بالقتال والدمار للأعداء ... سوف لا يقاتلون !!!

وهذا هو الفارق الواسع ... بين الأنبياء ... والزعماء ...

الزعماء يركبون موجة الجماهير ... وينفخون فيها ... لتشتعل ... وتصفق لهم الشعوب اعجاباً ... ببطولتهم ومواقفهم ...

أما الأنبياء ... فإنهم لا ينطقون إلا الحق ... رضي الناس أم سخطوا ... أقبلوا عليهم أم أدبروا ...

فماذا قال زعماء الشعب ؟! « **قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا** » أي شيء يدفعنا جميعاً إلى الحرب وقتال الأعداء ... أكثر مما نحن فيه ؟ !

احتلوا أرضنا ... وطردونا من ديارنا ... وبيوتنا ...

« **وأبنائنا** » وأسروا شبابنا ... ونساءنا ... ومزقونا شر ممزق ... فما طعم الحياة بعدهم ؟!!

« **فلما كُتب عليهم القتال** » فلما بعثنا لهم ملكاً كما طلبوا ... وفرضنا عليهم الحرب ...

« **تولوا** » فرّوا من الحرب ... وزاغوا ... وظهر صـــدق نبيهم ... وكذب أكثرهم ...

« **إلا قليلا منهم** » إلا عدداً قليلاً منهم ...

الملايين الثائرة ... كانت تصفيتها ... ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً !!!

« **والله عليم بالظالمين** » يعلم أن هؤلاء يكذبون... وأنها مجرد هياج لا حقيقة له في أعماقهم !!!

طالوت ... ملكا ...

« **وقال لهم نبيهم** » ولما ألحوا على نبيهم صمويل ... عليه السلام ... قال لهم ... قال لزعمائهم ...

« **ان الله** » ان الله أوحى إليّ ... وليس الأمر مـــني ... ولكن الله هو الذي اختار ...

« **قد بعث** » اشارة إلى أن مهمته هي بعث شعب ميت ... اثارة شعب لاستخلاص حقوقه من غاصبيه ...

رسالته أن يكون قائد ثورة ... قائد تحرير ...

باعث نهضة ... باعث شعب ... إلى الحياة الحرة الكريمة ...

سبحان الله !!!... في كل كلمة من كلام الله المجيد... أسرار... وأنوار ... وبحار ... لا تنفد !!!

« **لكم** » أنتم ... رسالته ومهمته محصورة فيكم ... وفي انقاذكم من أيدي أعدائكم ...

« **طالوت** » وهو رجل من عامة الشعب ...

« **ملكا** » يملك عليكم ... ويدبر شئونكم ...

« **قالوا** » قال الأشراف والزعماء ... الذين كانوا يلحون في طلب من يكون عليهم ملكاً ...

« **أني** » من أي سبيل ... وكيف يمكن أن يكون هذا الرجل البسيط ...

« **يكون له الملك علينا** » ونحن أهل الحـــول والطول ... وأهل العقل والتدبير !!!

« **ونحن** » وأي فرد منا... « **أحق بالملك منه** » فينا العلماء... والوجهاء... والزعماء ... وهذا ليس فيه شيء يؤهله للملك ...

« **ولم يؤت سعة من المال** » انه رجل فقير ... معدم ... فأنى لفقير كهذا أن يتولى الملك علينا ..؟

انها العقدة الخالدة ..!

ان الناس يقوّمون الأشخاص بنسبة أموالهم ...

فالوجيه عندهم ... صاحب الثروة ...

والشريف عندهم ... صاحب الجاه والسلطان ...

وضعت لي نسباً ... ووضع الناس لهم نسباً ... أما نسب الناس فالمال ... وأما نسبي فإن أكرمكم عند الله أتقاكم ... فاليوم أضع نسبهم ... وأرفع نسبي ...

انها العقدة الخالدة ... في جميع الناس ...

وإنها لمصيبة ... تدل على الغباء العام ... في تفكير أكثر الناس ...

لقد كانت مفاجأة لهم ... ان يقع الاختيار على طالوت ...

إنه مجرد فرد من الشعب ... لا يخطر بباله أن يكون ملكاً ... كما لا يخطر ببالهم أن يقع عليه الاختيار للمُلك ...

« **قال** » نبيهم صمويل ... عليه السلام ...

« **ان الله اصطفاه عليكم** » إن الله هو الذي اختاره ملكاً عليكم ... وما فعلته عن أمري ... ولكن الله هو الذي اختاره ... وأمرني بذلك ...

« **وزاده بسطة في العلم** » وآتاه مستوى رفيعاً ... من العلم ... الذي لا يوجد عند أحد منكم ...

« **والجسم** » وزاده بسطة في الجسم ... فهو يتفوق عليكم جميعاً في اللياقة البدنية ... ليس منكم من يساميه علماً ... أو قد يوازيه جسماً ...

وهذا هو المطلوب توافره ... فيمن يقوم بمهمة قائد ثورة شعب ... لاستخلاص حقوقه ... كشف النبي لهم سر الاختيار ... ليقطع ... منهم وساوس الاعتراض ...

بسطة في العلم والجسم .؟!

فما هي بسطة العلم ... وأي علم هذا ... هل هو علم من علوم الدنيا ... أو علم من علوم الآخرة ... أو هو شيء غير هذا وذاك ؟!

وما هي بسطة الجسم ... هل هي مجرد القوة البدنية ... أو هو شيء غير ذاك ؟ !

وللجواب على هذه الأسئلة نقول ...

كل قائد ثورة ... كل قائد تحرير ... كل من يتصدى لقيادة شعب من الشعوب ... كل رجل يقوم بمهمة التغيير في مسار الأحداث التاريخية ...

لا بد ... ويتحتم أن يتميز بهاتين الصفتين ... بسطة في العلم ... بسطة في الجسم ...

والعلم المطلوب هنا ... هو عبقرية الإدراك السياسي ... وهذا علم يُوهب من الله ... ولا يكتسب من الكتب ...

انه العبقرية السياسية ...

انه الأفق الواسع ... الذي يمكنه من رؤية ما لا يبصر سواه ... من عامة الجماهير وخاصتهم ...

نأخذ على ذلك مثالاً ... عمر ؟!..

ذلك العبقري العجيب !.

وفي الحديث « لم أر عبقرياً يفري فريّه » ..!

إن أصحاب رسول الله ... صـــلى الله عليه وسلم ... كثير ... وكلهم يمتازون ... بمزايا عليا ...

ولكن لمـــاذا عمر بالذات ... من بينهم ... ارتفعت هامته ... هذا الارتفاع الشاهق ؟!.

لا نتحدث هنـــا ... عن الأفضلية ... وإنما نتحدث عن صفة معينة ... توفرت في عمر ... فتشعشعت منها ... تلك العبقرية الفذة ... في التاريخ ... ما كان منه أو ما سيكون !..

انها صفة العبقرية السياسية ... التي وهبها الله لعُمر ... ولم يتلقاها من دراسات ... وإنما تلقاها من الله رأساً ...

وإنما تنحصر مهمة الدراسات ... إذا صادفت عبقرياً من هؤلاء العباقرة ... تنحصر في تنمية تلك الصفة ... المكنونة في أصحابها ...

لقد تلقى الصحابة رضي الله عنهم ... جميعاً ... عن رسول الله ... صلى الله عليه وسلم ...

فلماذا هذا الإبداع العجيب من عمر ؟!.

لمـــاذا منه هو بالذات ؟ !

انها صفة ... كانت مكنونة فيه ...

فلما آنست من جانب الطور ناراً ... اشتعلت وأنارت ... وتشعشعت ... وشعّت ... فكانت هذه البدائع والروائع !..

هذا مثال ...

وهذا هو العلم ... الذي يتحتم ... وجوده في كل قائد ثورة ... تغير مجرى أحداث التاريخ ...

وهذه الصفة ... لا يعلمها إلا الله ... من عباده ... لأنها مكنونة ... شأن كل صفة نفيسة في الإنسان ...

يسترها الله ... عن الأعين صيانة لها عن الابتذال ...

حتى تكون الأحداث ... المناسبة لظهورها ... فتظهر في حينها ...

فيقف الجاهلون حيارى يتصايحون : **أنى يكون له المُلك علينـــا ... ولم يؤت سعة من المال ؟!.**

ماذا كان عمر ... قبل إسلامه ؟!

لا شيء ...

ثم ماذا كان عمر ... بعد إسلامه ؟ !

العجب العجاب !..

لقد ظهرت الصفة المكنونة ... وجاءتهـــا الأحداث المناسبة ... فكان ما كان ... مما يضيق عنه البيان !..

هذا هو العلم المراد هنا « **وزاده بسطة في العلم** » ... زاده عليكم ... صفة عليا ... مكنونة فيه ... يراها الله ولا ترونها ... ويعلمها ولا تعلمونها ...

انه ينظر من أفق أعلى ... ويبصر ما لا تبصرون ... ويعلم ما لا تعلمون ...

وتشتعل نار الحسد ... في نفوس الحاقدين ... ويصيحون صيحة واحدة « **أنى يكون له الملك علينا ... ونحن أحق بالملك منه** » ؟!.

نفس المنطق المريض ... منطق أهل الجهل والغباء « **لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » ؟!.

الإنسان هو الإنسان ...

تختلف الجزئيات ... وتبقى الكليات هي هي!..

ولو أنك استطعت أن تحصي... عباقرة الشعوب... من قادة الثورات... التي غيرت حياة شعوبها ... لتبيَّن لك على الفور ... أن الصفة التي تنتظمهم جميعاً هي « **بسطة في العلم والجسم** » !..

ولا أطيل عليك ... في سرد الأمثال ... فليس هذا مكانه ...

وإنما أنتقل بك ... إلى الصفة الأخرى ... « **والجسم** » ...

يتحتم أن يكون قائد الثورة ... بطلاً ...

بكل مظاهر البطولة ... في الجسم ...

لأن الكمال البطولي ... كمالان ... باطن ... وظاهر ...

أما الباطن ... فهو « **بسطة في العلم** » ...

وأما الظاهر ... فهو « **والجسم** » ...

لأن الرجل الضعيف البنية ... الهزيل الجسم ... لا يثير احترام الجنود ... حين يقودهم في المعارك ... التي تعتمد في المقام الأول ... على قوة الأجسام ... حين يشتعل الوطيس ...

ان الناس يريدون قائدهم مثالاً في الكمال الظاهر ... ومثالاً في الكمال الباطن ...

إن البطولة ... هي التفوق والامتياز ...

فينبغي أن يكون قائد التحرير ... والثورة ... ممتازاً في ظاهره ... وباطنه ...

وقد كان هذا موجوداً في طالوت ...

شاب بطل ...

جميل الخلقة ... قوي البدن ... يثير الاعجاب والاحترام ...

فضلاً عن امتيازه الباطن ... فقد كان عبقرياً ...

فماذا قال لهم نبيهم حين رفضوا اختيار طالوت ملكاً ؟!

« **والله يؤتي مُلكه من يشاء** » من عباده ... وهو أعلم بهم ... وأعلم بمن يصلح للملك ... ومن لا يصلح ... « **والله واسع** » أحاط بكل شيء علماً ...

« **عليم** » وسع كل شيء علماً ... ويعلم ان طالوت ... هو أصلح من يكون عليكم ... في هذه الظروف ملكاً ...

وقتل ... داوود ...

جالوت ...؟!

رفض ...

أكثر الشعب اختيار طالوت ملكاً ...

وقال بعضهم : نريد آية ... نريد معجزة من الله ... تدل على أن الله اختاره علينا ملكاً ...

« **وقال لهم نبيهم إن آية مُلكه أن يأتيكم التابوت** » ان يعود اليكم تابوت العهد ... الذي سلبه منكم أعداؤكم ... وهو صندوق فيه التوراة ... وكانوا يقدمونه أمامهم في معاركهم مع أعدائهم ... فإذا رأوه نزلت عليهم السكينة وانتصروا على أعدائهم ...

« **فيه سكينة من ربكم** » تنزل عليكم إذا رأيتموه عائداً اليكم سكينة من ربكم ...

« **وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون** » وفي التابوت بقية مما ترك موسى وهارون ... قيل : هي عصا موسى ... ورضاض الألواح ...

« **تحمله الملائكة** » أي يأتيكم تابوت العهد ... تحمله الملائكة اليكم ... معجزة من ربكم ... لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وان الله قد اختار عليكم طالوت ملكاً ...

وحدث هذا ... وجاءهم التابوت ... تحمله الملائكة ... أمام أعينهم جميعاً ...

فلا سبيل أمامهم إلا التسليم ... فهل سلموا تسليماً ؟!.

كلا ... سلّم البعض ... ورفض البعض ... وناصبوا طالوت العداء ...

وخاض طالوت ... قائد الثورة ... المعارك التي لا بد لمثله أن يخوضها مع أعدائه في الداخل والخارج ...

بدأ يواجه المشاكل الداخلية ... ومكائد الحاقدين ...

وفي نفس الوقت ... عليه أن يوحـــد الشعب ... ليواجه به الأعداء في الخارج ...

وأحس الأعداء أن طالوت يجمع الشعب ويوحده وينظمه فحشدوا له حشداً عظيماً لقتاله ... وخرج على رأس الجيش قائد رهيب لا يجرؤ أحد على نزاله ... هو **جالوت** ...

وخرج طالوت على رأس جيشه ... لمحاربة جالوت وجنوده ...

« **فلما فصل طالوت بالجنود** » فلما ابتعد طالوت بالجيش ... في طريقه إلى ساحة القتال ...

« **قال ان الله مبتليكم بنهر** » أيها الجيش ... أيها الضباط ... أيها الجنود جميعاً ... ستمرون على نهر ... سيختبركم الله به اختباراً شديداً ... سيشتد عطشكم ... وتشتد رغبتكم في الشرب من مائه ... فاحذروا ...

« **فمن شرب منه فليس مني** » فمن شرب من ماء ذلك النهر ... حـــتى يشبع ... فليس مني ولا أنا منه ... لأنه اتبع شهواته ... ومن لم يصبر على الماء ... لا يصبر على الموت مع الأعداء ...

« **ومن لم يطعمه فانه مني** » ومن لم يذق له طعماً ... ولم يقترب من مائه ... فإنه مني ... من جنود الله ... من الطائعين لأمر الله ...

« **إلا من اغترف غرفة بيده** » إلا من أخذ ملء كفه الواحدة من المـــاء

وشربها ... ليذهب حرارة العطش ... هذا القدر مسموح به للضرورة ... ولدفع الهلاك ...

أمر صريح ... من القائد الأعلى للجيش ... إلى جميع أفراد الجيش ...

وسار طالوت على رأس جنوده ...

واشتد العطش بالجنود ... واشتدت الرغبة في المـــاء ... ووقف الجيش كله ... أمام النهر ...

ها هو الماء ... وها هم اولاء عطشى ... يكاد الظمأ يقتلهم ...

فماذا كان من الجنود ؟ !

« **فشربوا** » جميعاً ... بلا استثناء ... شربوا حتى امتلأت بطونهم ...

« **منه** » من ماء النهر ...

« **إلا قليلاً منهم** » إلا عدداً قليلاً ... خافوا الله ... وصبروا على العطش ... ابتغاء مرضات الله ...

وكانت تصفية للجيش ...

أما الذين شربوا ... وهم الأكثرية ... فقد ارتدوا على أدبارهم ... ولم يرغبوا في قتال ... ولا رغب طالوت أن يكونوا معه ...

لأن الذي يعصي الله في شربة ماء ... يعصيه في الثبات للأعداء ... ولا يلبث أن يفر من الموت ...

فهؤلاء لا خير فيهم ... ومن الخير ... أن يرجعوا من الآن ... حتى لا يتسببوا في الهزيمة للجميع ...

« **فلما جاوزه** » فلما عبر طالوت ذلك النهر ...

« **هو** » على رأس الذين لم يشربوا من النهر ...

« **والذين آمنوا معه** » على رأس الذين آمنوا بالله ... وثبتوا معه على أمر الله ...

وصبروا على العطش امتثالاً لأمر ربهم ...

فماذا حدث ؟ !

حدثت تصفية ثانية لهؤلاء المؤمنين ...

« **قالوا** » رعبوا رعباً عظيماً ... حين رأوا كثرة عدد أعدائهم ... وعلى رأس الأعداء ... البطل الرهيب جالوت ... يتحدي أن يجرؤ أحد على نزاله ...

« **لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** » لا قوة لنا الآن بهذا القائد الجبار ... ولا بهذا الجيش الضخم ...

ونكص الذين آمنوا عن اللقاء ...

انهم صبروا من قبل عن الماء ...

ولكنهم الآن يباشرون مواجهة الموت ...

وهذا اختبار أصعب بكثير من اختبار الصبر عن الماء ...

لأن من الناس من يصبر عن شهواته ... ولكنه لا يصبر على الموت ...

فماذا كان ؟!!

« **قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله** » وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً !!!

عدد أهل غزوة بدر الكبرى ...

وهذه هي التصفية الثالثة !!!

فتأمل ... شعب بأكمله ... يُصفى الى ٣١٢ رجلاً !!!

فما معنى هذا ؟!

معناه أن نبيهم حين قال لهم « **هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا** » ؟!. كان يصدقهم ... ويكشفهم الى أنفسهم ...

وها هي الحقيقة تظهر ... بعد سنين من قول نبيهم !!!

« **عن البراء قال :**

« **كنا نتحدث ان أصحاب بدر ، يوم بدر ...**

« **كعدة أصحاب طالوت ...**

« **ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً** » .

[أخرجه الترمذي]

ثم ماذا ؟!!

هل انتهت التصفيات عند هذا ؟ !

كلا ... بل هناك تصفية رابعة !!

ان هؤلاء الذين هم ذروة المؤمنين ...

لا يوجد منهم ... وعلى رأسهم طالوت ...

من يجرؤ على الخروج الى مبارزة جالوت ...

فمن لهذا الطاغية الجبار ... لا أحد هناك !!!

واصطفت صفوة أبطال طالوت ... اصطف الثلثمائة والثلاثة عشر رجلاً... وتوجهوا إلى ربهم ...

« **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله** » لأن النصر من عند الله ... ولا يرتبط بقلة أو بكثرة ...

« والله مع الصابرين » يؤيدهم وينصرهم ...

« ولما برزوا » ولما اصطف الثلثمائة والثلاثة عشر رجلاً للقتال ...

« لجالوت وجنوده » وجالوت يختال يمنة ويسرة ... وينادي على الملأ : هل من مبارز ... ومن ورائه جيش كبير ... مجهز بأسلحة الفتك والبطش ...

« قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً » أصبب في قلوبنا أمواجاً من الصبر ...

« وثبت أقدامنا » فلا نفر أمام أعدائنا ...

« وانصرنا على القوم الكافرين » الذين لا يؤمنون بك ... ولا برسلك ... في تلك اللحظة الحاسمة ... في التاريخ ...

جعل جالوت يكرر صيحته : هل من مبارز ... هل من أحـــد يريد أن يجرب الموت ؟!

ولا أحد يجرؤ على الخروج اليه ... لا طالوت ... ولا أحـــد ممن مع طالوت !..

وكان هناك غلام ... ليس من جند طالوت ...

وإنما بعثه أبوه ... يسأل عن أخبـــار اخوته الثلاثة الذين خرجوا في جيش طالوت ...

جاء هذا الغلام ... ورأى ما رأى ... من جبروت جالوت ... وزهوه وفخاره ... واحتقاره لطالوت وجنوده ...

ورأى خوف الجميع ... ان يخرج أحدهم لمبارزته ...

فتسلل الغلام حتى وصل إلى حيث يقف طالوت ... وسأله أن يسمح له بمبارزة جالوت !..

وكان شيئاً يثير الضحك !..

وحاول طالوت أن يصرفه عن رغبته فأبى ...

وأخيراً اضطر طالوت ان يستجيب للغلام ...

فألبسه ثياب الحرب التي كانت عليه ...

إلا ان الغلام لم يكن له خبرة سابقة ... بمثل هـــذه الثياب المعقدة ... فخلعها عنه وألقاها بعيداً ...

وتوجه الغلام ... في ثيابه البسيطة ... ثياب غلام يرعى الغنم لأبيه ...

وأخذ معه مقلاعاً ... وأحجاراً ملساء في كيس علقه في عنقه ...

وشق الغلام طريقه إلى جالوت ... جبار الحرب ...

كان جالوت على صهوة جواده ... في ملابس حربه ... وقد أثار اعجاب جنوده ... والرعب في قلوب جنود طالوت ...

وتطلع الجميع ... الى تلك المهزلة ... غلام يخرج لمبارزة جالوت ...

اما ان هذا الغلام قد أصابه الجنون ...

وإما انها حركة يأس من طالوت وأصحابه ...

ثم ماذا ؟ !

ثم وقعت المعجزة ...

تناول الغلام ... حجراً ... ووضعه في المقلاع ... ثم رمى ...

« وما رميت إذ رميت »

« ولكن الله رمى » !..

فاستقر الحجر ... في أوسط جبين جالوت ... فشق من جبينه ...

ثم أتبعه بحجر آخر ... فأصاب رأس الطاغية ... ثم الثالث ... فاهتز الطاغية اهتزازاً ... وهوى ...

وسقط جالوت عن فرسه صريعاً ... يشخب دماً !..

وما أن رأى جيشه طاغيته يسقط صريعاً ..حتى دب الرعب في قلوبهم...

هنالك شد طالوت والذين معه عليهم شدة واحدة ...

فتبددوا ... وهزموهم بإذن الله !..

فمن هو هذا الغلام ؟!.

إنه داوود !..

« **فهزموهم باذن الله** » فغلبوهم أجمعين ... وبددوهم ... بإذن الله ...

« **وقتل داوود جالوت** » ... وكانت آية منا ...

ونزل النصر ... على قلب داوود ...

على الفرد المستصفى ... من شعب بأكمله ...

كانت هذه اللحظة ...

لحظة « **قتل داوود جالوت** » ...

هي بداية ظهور المكنون ... من ذلك الغلام المجهول !..

انه الفرد المصطفى من أمة بأكملها ...

انه أشجع الأمة بأكملها ...

انه تصدى لمن تراجع الجميع عن لقائه ...

انه « **عبدنا داوود ذا الأيْدِ** » ذا القوى ...

أقوى فرد في الأمة ...

أقوى فرد ايماناً ...

أقوى فرد شجاعة ...
أقوى فرد علماً بنا ...
نحن نعلمه ... وأنتم لا تعلمون ...
من أجل ذلك ... بعثناه إلى جالوت ...
وقتلنا بيده جالوت ...
وأنزلنا على قلبه النصر ...
ذالكم ... هو الغلام الجميل ... الجليل ...
ذالكم ... هو داوود !..

طالوت ... يكيد ...

لداوود ...

الامتياز ...

نعمة جليلة ... ولكنه في نفس الوقت ... مصيبة جسيمة !..

كيف يكون الشيء الواحد نعمة ونقمة في آن واحد ؟!

هذا ناموس ... يسري ويجري ... في النـــاس ... ولا تبديل له ولا تحويل ...

وإنما يتفجر ذلك الناموس ... من حديث « **كل ذي نعمة محسود** » !..

أي محقود عليه ... من غيره !..

وأعظم النعم نعمة الامتياز ... ومن هنـــا كانت مثاراً لحقد الحاقدين على الممتاز ...

سواء كان الامتياز موهوباً ... أو مكتسباً ...

انه في أعين الحاسدين ... امتياز وكفى بذلك جريمة في تقديرهم ؟.

فأيما عبد ممتاز ... فعليه أن يستعد لرشق سهام الحاسدين ...

وتاريخ الآدميين مشحون بأمثلة تؤكد هذا الناموس ...

يوسف ... الطفل الذي لا حول له ولا قوة ...

كانت جريمته ... عند اخوته هي امتيازه ...

ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا مِنـّا ... » ؟!.

تأمل ... هذه هي الجريمة ...

واندفعوا يأتمرون ... بطفل !..

« **اقتلوا يوسف** » !..

هذا هو الناموس ... هذا مثال ...

يوسف يُقتل ... لماذا ؟!. لأنه ممتاز ...

وما ذنبه ... وقد خلقه الله ممتازاً على اخوته ؟!.

وأدركوها أخيراً ... « **تا للهِ لقد آثرك الله علينا** » !..

والانبياء أعظم الناس بلاء ... من هذا السبيل ... سبيل الامتياز ..

فمعلوم انهم أعظم الناس امتيازاً ... ظاهراً وباطناً ...

ومن هنـــا ... يشغب عليهم الجاهلون ... بكل ما يخطر على البال من الشغب والاجرام والصد والمضادة والمحاربة ...

فإذا لم تسعفهم هذه المحاولات كلها ... دبروا لقتلهم للخلاص منهم !..

« **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ، شياطين الانس والجن ...** » !..

ومن الأنبياء ... ذلك النبي ... الملك ... داوود ...

اندفع بحُكم امتيازه ... الموهوب ... وهو غلام ... لا يخطر بباله ... ان يكون شيئاً ...

اندفع الى جالوت ... ورماه بأحجار استقرت في جبهته ... فترنح وسقط يشخب دماً ...

فتقدم داوود ... الغلام ... البريء ... ولم يكن معه سيف يقـــاتل به عدوه ...

فنزع سيف جالوت منه ... وجالوت مجندل في دمائه ...

ثم قطع رقبته ...

فارتج المعسكران ...

معسكر طالوت ... تمجيداً لله ...

ومعسكر جالوت ... رعباً وفزعاً وفراراً ...

فدوى اسم ... داوود ... دوياً شديداً ...

الجميع يتحدثون ... ويقصون تفاصيل القصة ...

كيف جندل هـــذا الغلام ... أعظم جبابرة الحرب جالوت ... واحتز رقبة جالوت ... بسيف جالوت !..

ودخل داوود ... من هـــذه اللحظة ... بحر الشهرة ... التي لم يفكر فيها ... ولم يسع اليها ...

الكل يتحدث ... داوود ... داوود ... داوود !..

وأظهر الله للعيان ... الامتياز ... الذي كان مكنوناً ... في ذلك الغلام الراعي غنمات أبيه ...

وأي امتياز ؟!.

انه القدرة الخارقة ... والآية الباهرة ... والمعجزة القاهرة ...

طفل ... يبارز جباراً ... فر الصناديد من مبارزته ...

طفل ... يجندل- جباراً ... ويحتز عنقه بسيفه ...

غلام ... ينتزع النصر لشعب بأكمله ...

ويلحق عار الهزيمة بشعب بأكمله ...

امتياز ليس كمثله امتياز ...

فليكن بلاؤه ... ليس كمثله بلاء ...

« **أشدكم بلاء الانبياء** » !..

لماذا ؟!.. لأنهم أشد الناس امتيازاً !..

فلنفهم القضية ... قضية الأنبياء ...

ان أمورهم أعجب الأمور ...

وأحوالهم أعجب الأحوال ...

وأقوالهم أصدق الأقوال ...

وأفعالهم أحكم الأفعال ...

هذا صاحبنا ... طالوت ... قائد ثورة التحرير ...

كان ملء الأسماع في شعبه ... باعتباره منقذ الشعب ومحرره من أعدائه ...

فلما فعل داوود فعلته ... التي فعل ...

انتزع داوود الإعجاب من طالوت ...

واستوى داوود ... على عروش قلوب الشعب من أوله إلى آخره ...

والبطل يظل بطلاً ... في أعين الناس ... ما لم يبرز له منافس ... فينتزع منه البطولة ...

وقد كان طالوت ... أغنية الشعب ... رجالاً ونساءً ...

يتحدثون عن أمجاده ... وانتصاراته ... ويعظمونه ...

فلما قتل داوود جالوت ... انتقلت الزعامة والبطولة إلى داوود تلقائياً ...

وإن كان طالوت ... ما زال رسمياً ... هو الملك ...

وداوود ما زال عملياً هو الغلام البسيط ... أحد رعاة الغنم ...
ولكن اسمه يرتفع في الشعب ...
فامتلأ قلب طالوت عليه غيرة وحسداً وحقداً ...
وبدأت القصة ... أو بدأ الناموس ...
وحقد الملوك هو أشد حقد على الإطلاق ...
وطالوت ملك يريد أن يحافظ على عرشه ...
وعرش الملوك ... قوائمه حب الشعوب ...
وها هو حب الشعب ... يتحول إلى داوود ...
فعرش طالوت إذاً يهتز ويميد ويضطرب ...
فليقتل داوود قتلاً !..
كان هذا هو لسان حال طالوت !..

صهر الملك ... وقائد عام ...
القوات المسلحة ...؟!

ولجـــأ ...

المسمى طالوت ... إلى كل حيلة ... يلجأ اليهـــا الملوك ... للقضاء على غريمهم ...

زوّجه ابنته ... فصار داوود بذلك صهرا الملك !..

وعيّنه قائداً عاماً للقوات المسلحة ... ليستميله إلى صفه ... فإن للمناصب تأثيراً على أصحابها ...

ولكن داوود سجل انتصارات جديدة ... فازداد تعلق الشعب به ...

كما أن ابنة الملك أحبت داوود حباً شديداً ...

والعذارى قلوبهن مركزة على الأبطال ...

وأي بطل هو أعظم من البطل داوود ؟!.

قاهر جالوت ...

وقاهر أعداء الشعب ...

وقاهر طالوت ... رغم أنف طالوت ...

إلى آخر هذه السيمفونية الرائعة ... التي يعزفها الشعب كله !..

وتسمعها ابنة الملك ... فتزداد التصاقاً ببطلها وزوجها ... وتزداد ابتعاداً عن أبيها وألاعيب مُلكه !..

وإن أسعد لحظة عند الفتاة ... أن يشار إلى رجلها بالبنان ...

وكان داوود يزداد... يوماً بعد يوم ... شهرة ... وعظمة ... وبطولة!..

لم يبق أمام طالوت ... وقـــد فشلت أساليب الإغراء ... في القضاء على داوود ...

الا ... قتل داوود!..

والمُلك قد يجيز للملوك أن يفعلوا ما يشاؤون ... للحفاظ على عرشهم!..

ولا يوجد في أحوال البشر تجربة أصعب من تجربة أن يكون الإنسان مَلكاً!..

انها تجربة على الغاية من الصعوبة ... وعلى الغاية من الخطورة ... وعلى الغاية من التعقيد ...

ولا يفهم صعوبة تلك التجربة إلا الملوك أنفسهم!..

هم أصحاب التجربة ... وهم الذين يصطلون بنارها وحرها ولهيبها!..

وإنما تتأتى صعوبة تجربة المُلك ...

من أوحدية العرش ... فالعرش كرسي واحد ... لا يحتمل أن يكون عليه اثنان ... وأمواج الأعداء في الداخل والخارج تموج في اتجاه ذلك الكرسي الواحد ...

فيجد الملك نفسه مضطراً لكي يحفظ على الكرسي استقراره وسط تلاطم هذه الأمواج عليه ... أن يفعل ما يستطيع فعله لتثبيت كرسيه!..

وهذا ما وجد الملك طالوت نفسه في داخله ... من حيث لا يريد ... ولا يحتسب ...

كان ملكاً عظيماً ... وقائد ثورة شعب ...

وفجأة هبت الأعاصير ... وتلاطمت الأمواج ... واهتز الكرسي ...

وحاول بالإغراء تارة ... وبالإرهاب تارة ... فازدادت خطورة داوود . . .

فتحتم في منطق طالوت الملك ... أن يُقتل داوود !..

وإليك طرفاً... من تلك المحاولات... كما هي مسجلة عند أهل الكتاب... وفي أسفارهم ... مختصراً :

« وميكال ابنة شاول أحبت داوود

« فأخبروا شاول فحسن الأمر في عينيه

« وقال شاول : أعطيه اياها فتكون له شركاً » ...

إنه يريد أن يزوجه ابنته ميكال ... ليسيطر عليه بهذه المصاهرة ...

عسى ان يشعر داوود بالمنة ... وهو الرجل البسيط ... يتزوج ابنة الملك !

وقالوا : **« فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة ...**

« وميكال ابنة شاول كانت تحبه .

« وعاد شاول يخاف داود بعد وصار شاول عدواً لداود كل الايام » ...

هكذا ... ميكال قد شغفها داوود حُباً ... بينما كان أبوها يريد أن تكون عوناً له على زوجها !..

وقالوا : **« وكان داود يخرج إلى حيث أرسله شاول كان يُفلح .**

« فجعله شاول على رجال الحرب ، وحسن في أعين جميع الشعب » ...

أي جعله قائداً عاماً للقوات المسلحة ...

ولكن نجاح داوود في كل معركة يخوضها ضـــد الأعداء ... جعله يشتهر أكثر فأكثر !..

فلا تزويجه ابنة الملك أضعفت من موقفه ...

ولا دفعه إلى المعارك أدى إلى قتله فيستريح طالوت !..

محاولات ... لاغتيال ...
داوود ...

أكثر من مرة ...

والمسمى طالوت ... أو شاوُل ... بلغة أهل الكتاب ... يحـــاول اغتيال داوود !..

وكما قلنا من قبل ... كانت جريمة داوود الكبرى ... في منطق طالوت...

لماذا يتحول حب الشعب من طالوت ... إلى داوود ؟!

لماذا تحبه ميكال ... ابنة طالوت ... هذا الحب الشديد ؟!

لماذا حـــتى ... يُوناثان ... ابن طالوت ... يحبه هو الآخر هذا الحب الشديد ؟ !

« وكان لما فرغ من الكلام مع شاوُل أن نفس يُوناثان تعلقت بنفس داود ، وأحبه يوناثان كنفسه » ؟!.

كيف هذا ... ابنتي ... ابني ... كل الشعب ... يحبون داوود ؟!.

هذا خطر على مُلكي ... هذا لا بد أن يُقتل !..

هكذا وسوست إلى طالوت نفسه !..

قالوا : « **وكلم شاوُل يوناثان ابنه ، وجميع عبيده أن يقتلوا داود** » !..

هذا يُعتبر في عُرف الملوك أمراً واجب التنفيذ ...

ان الملك يأمر ابنه ... ويأمر عبيده ... اقتلوا داوود ...

فهل أطاع الابن أباه ؟ !

قالوا : « فأخبر يوناثان داود قائلاً : شاوُل أبي ملتمس قتلك ، والان فاحتفظ على نفسك إلى الصباح ، وأقم في خفية واختبىء .

« وأنا أخرج وأقف بجانب أبي في الحقل الذي أنت فيه ، وأكلم أبي عنك ، وأرى ماذا يصير وأخبرك .

« وتكلم يوناثان عن داود حسناً مع شاول أبيه .

« وقال له : لا يُخطىء الملك إلى عبده داود ، لأنه لم يخطىء اليك ، ولأن أعماله حسنة لك جداً ...

« فلماذا تخطىء إلى دم بريء بقتل داود بلا سبب » ؟ !

هذا دفاع يوناثان عن داوود وإنه لدفاع حق وجريء ... ان داوود بريء ... لا ذنب له إلا أن قتل جالوت ... وانتزع النصر للشعب ...

فماذا كان جواب طالوت ؟ !

قالوا : « فسمع شاوُل لصوت يوناثان .

« وحلف شاوُل : حيٌّ هو الرب ، لا يُقتل » ...

لحظة استيقظ فيها ضمير طالوت ...

فأصدر أمراً ملكياً ... أصدر عفواً ملكياً ... لا يُقتل !..

فهل صحيح ان الملك طالوت ... تنازل عن أفكاره السوداء ... وعفا حقيقة عن داوود ؟ .

كلا ... وإنما ينتهز الفرصة المناسبة ...

ألم أقل لك ... ان حقد الملوك ... هو أشد الأحقاد ...

مؤامرة لاغتيال داوود

عادت الحرب ... وخرج داوود على رأس الجيش وضرب الأعداء ضربة عظيمة ... وانتصر نصراً عظيماً ...

فازداد اسمه دوياً ... وتناقلت الألسن براعته الحربية ...

فازداد طالوت عليه حقداً ... ودبّر هذه المرة تدبيراً محكماً يُفضي حتماً إلى قتله !..

قالوا : « **فأرسل شاوُل رسـلاً إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح .**

« **فاخبرت داود ميكال امرأته ، قائلة : ان كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فانك تُقتل غداً »** .

ان ميكال تحب داوود زوجها حباً شديداً ...

وها هي تكشف له خطة أبيها التي وضعها لقتل داوود ...

وها هي تقف إلى جانب زوجهـا في تلك اللحظة الحرجة من حياته ... وتدبر له كيفية الإفلات من قبضة أبيها وزبانيته !..

قالوا : « **فأنزلت ميكال داودَ من الكوّة ، فذهب هارباً ونجا .**

« **فأخذت ميكال الترافيم ووضعته في الفراش ، ووضعت لُبدة المِعزَى**

تحت رأسه وغطته بثوب .

« وأرسل شاوُل رسلاً لأخذ داود فقالت : **هو مريض** » !..

ها هنا إشارة جميلة ...

يشبه هذا المشهد... مشهد ليلة الهجرة في حياة رسول الله صلى الله وسلم...

حين خرج صلى الله عليه وسلم ... ونام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراشه ... فظنه الذين كفروا محمداً ... في فراشه ...

وهذا التشابه ... الذي يكاد يتطابق ... في موقف من مواقف حياة رسول الله ... وحياة نبي الله داوود ... ليس عفواً ولا صدفة ... وإنما هو سُنن إلهية لا تتبدل ... ان يمر الأنبياء على نفس التجارب... ونفس الاختبارات... التي تتلألأ فيها أنوارهم للخلق أجمعين !..

وتجربة القتل ... أو التعرض للقتل ... تكاد تكون تجربة متكررة ... في حياة كل نبي رسول ...

يتحتم أن يمر كل رسول ... على هذا المقام ...

مقام ان يهدد بالقتل من أعدائه ... ويُدبر لاغتياله !

انظر ... في يوسف ... « **اقتلوا يوسف** » ...

في موسى ... « **إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك** » ...

وها هنـــا ... في داوود ... كما ترى ... طالوت مُصر إصراراً على قتل داوود ...

وهكذا ... مقام ... لا بُد لهم أن يمروا عليه ... صلى الله عليهم ...

ثم ماذا ؟..

ثم قالوا : « ثم أرسل شاوُل الرسل ليروا داود قائلاً : اصعدوا به إليّ على الفراش لكي أقتله » !..

حقد أسود ... انه يريده أمامه فوراً ... ليقتله فوراً !..

« فجاء الرسل ، وإذا في الفراش الترافيم ولبدة المِعزى تحت رأسه .

« فقال شاوُل لميكال : لماذا خدعتني ، فأطلقتِ عدوي حتى نجا ؟؟

« فقالت ميكال لشاوُل : هو قال لي أطلقيني ، لماذا أقتلك » ؟؟

« فهرب داود ونجا » ...

هذه محاولة ... وتدبير من طالوت ...

يريد أن يقتل داوود ... مهما كانت الظروف ...

أما كون داوود بريئاً أو غير بريء فهذا شيء لا يعنيه ... ولا يفكر فيه ... المهم أن يُقتل داوود !..

ثم ماذا ؟!

ثم لجأ داوود إلى الجبال ... واعتصم بها ...

واجتمع اليه نفر من الناقمين على حكم طالوت ...

فخشي طالوت أن يستفحل أمره ... وظن أنه يدبر للثورة عليه ...

فخرج يطارده ... ليظفر به ويقتله ومن معه ...

قالوا : « وذهب شاوُل ورجاله للتفتيش .

« فأخبروا داود ، فنزل إلى الصخر ، وأقام في برية معون .

« فلما سمع شاوُل تبع داود الى برية معون .

« فذهب شاوُل عن جانب الجبل من هنا .

« وداود ورجاله عن جانب الجبل من هناك .

« وكان داود يفر في الذهاب من أمام شاوُل .

« وكان شاوُل ورجاله يحاوطون داود ورجاله لكي يأخذوهم » .

إصرار على مطاردة داوود ... ومحاولة من الملك ... لقتـــله ومن التف حوله !

ثم حدث بعد ذلك ... ان ظفر داوود بطالوت ... واستمكن منه ... إلا أن أخلاق الأنبياء تلألأت منه ... فعفا عن طالوت ولم يمسسه بسوء !..

واعترف شاوُل بفضل داوود عليه وقال :

« أنت أبرُّ مني ، لأنك جازيتني خيراً ، وأنا جازيتك شراً » !..

ثم أعلنها طالوت رغم أنفه : « والآن فاني علمت انك تكون ملكاً ....» !..

هذه هي عقدة طالوت ...

ان داوود سينزع منه حتماً الملك نزعاً !..

ثم ماذا ؟!

ثم تتابعت الأحداث ... وأتت المقادير بالمخرج لداوود ...

ذلك أن طالوت خرج على رأس جيشه لمحاربة الأعداء ...

ولم يكن معه هذه المرة داوود ...

لأنه كان قد أصبح لاجئاً سياسياً ... خارج مملكة طالوت وسلطانه ... فشدّ الأعداء وراء طالوت ...

واشتدت الحرب على طالوت فأصابه الرماة ... وجرح جراحاً بليغة ...

ومات طالوت ... في المعركة هو وبنوه ... وجميع القادة من حوله ...

ثم قطع الأعداء المنتصرون رأسه ... ونزعوا سلاحه ... وعلقوا جثته ... لتكون عنواناً ... على هزيمته وهزيمة جيشه ...

وهكذا حكم الله في القضية ... وانتهى طالوت ... وبقي داوود ... لأن هناك دوراً تاريخياً عظيماً في انتظاره !..

وآتاه ... الله ...
الملك ...

قال تعالى :

« وقتل داوود جالوت

« وآتاه الله المُلك » !..

الإشارة منها ... ان قتل داوود لجالوت ... كان نقطة البدء ... في انتقال المُلك الى داوود ...

وهذا ما كان يدركه الملك طالوت ... ويعمل على ايقافه ما استطاع ...

وما هـــذه الأحداث والصراعات بينه وبين داوود ... إلا محاولات من طالوت لمنع صعود داوود إلى المُلك ...

ولكن هيهات هيهات ...

فقد أراد الله ان يكون داوود ملكـــاً ... وأن يُنزع الملك من طالوت نزعاً ...

« قل اللهم مالك المُلك

« تُؤتى المُلك من تشاء

« وتنزع الملك ممن تشاء ... » .

فذهب طالوت كما رأينا ..٠

وتتابعت الأحداث ... ليرتفع داوود ملكاً !..

وجاء جميع شيوخ الشعب إلى داوود ...

فقطع الملك داوود معهم عهداً أمام الله ...

وبايعوا جميعاً داوود ملكاً على جميع الشعب ...

كان داوود آنذاك ابن ثلاثين سنة حين مَلَك ...

ومَلك أربعين سنة ...

قالوا : « **وكان داود يتزايد متعظماً ، والرب وإله الجنود معه** » !..

أي انه كان يزداد عظمة ، يزداد ملكه قوة ...

وخاض داوود معارك كثيرة ... ضد أعداء الشعب ... من حوله ...

وكان كل مرة ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ...

حتى استسلم له أعداؤه ... اما عن هزيمة أمامه ... وإما خوفاً من قوته ... حيث أصبح القوة الأعظم ...

قالوا :

« **والآن فهكذا تقول لعبدي داود .**

« **هكذا قال رب الجنود :**

« **أنا اخذتك من المربض من وراء الغنم ، لتكون رئيساً على شعبي ...**

« **وكنتُ معك حيثما توجهت ...**

« **وقرضت جميع أعدائك من أمامك ...**

« **وعملت لك اسما عظيماً كاسم العظماء الذين في الأرض** » !..

ان الله يذكره نعمته عليه ... وأنه كان يرعى الغنم لأبيه ... فاستخرجه ليكون ملكاً عظيماً على الشعب كله ...

ويجعله عظيماً من عظماء الكرة الأرضية آنذاك ...

فماذا كان من داوود ؟!

جمل يثني على ربه ... ويشكره ... ويعدد آلاءه عليه ...

قالوا :

«فدخل الملك داود ، وجلس أمام الرب وقال :

« من أنا يا سيدي الرب ، وما هو بيتي ، حتى أوصلتني إلى ههنا ؟!.

التذلل لله ... والتواضع ... بل الفناء التام ...

انه يشعر أمام الله ... انه لا شيء ...

وأنه لا يستحق أن يجعله الله ملكاً عظيماً ... ذا سلطات عظيمة ... ومهابة شاملة !..

ثم يقول داوود ... في مناجاته لربه :

« والآن يا سيدي الرب :

« أنت هو الله

« وكلامك هو حق

« وقد كلمت عبدك بهذا الخبر

« فالآن ارتض وبارك بيت عبدك ... » !..

هكذا الأنبياء ... لا يرون أنهم ملوكاً ...

وإنما الله هو الذي آتاهم المُلك ...

وأن مُلكهم لا ثبات له إلا اذا ثبته الله لهم ...

وهكذا استوى داوود بإذن ربه ... على العرش ...

وبارك الله له وعليه ...

قالوا :

« وكان داود يُجري قضاءً وعدلاً لكل شعبه » !..

ما أعظم هذا !..

مُلك ... وعدل !..

اذ دخلوا ... على داوود ...

ففزع منهم ...

في اللحظة . . .

التي بلغ فيها داوود ... ذروة النصر العسكري ... والعزة الدولية ...

وامتد فيها ملكه يميناً وشمالاً ... وشرقاً وغرباً ...

في هذه اللحظة ... حيث يبلغ الإنسان تمام النعمة ...

ينزل البلاء ... ليضرب داوود ... في أعماقه ضرباً شديداً ...

وإلى هذا المعنى يشير القرآن العظيم :

« **وشددنا مُلكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** » ...

أي حين بلغ مُلك داوود أشده ... ورفعناه إلى أعلى درجات المُلك ...

كان يتحتم ان يُضرب بالبلاء ... لنكسر من صولة المُلك فيه ... فيتحقق منه التوازن المطلوب ... فيكون حكيماً ... أي موزوناً في حكمه على الأمور ...

« **وآتيناه الحكمة** » ... فإذا نطقَ نطقَ بالقول الفصل ...

« **وفصل الخطاب** » !..

انه بحر « **أدبني ربي فأحسن تاديبي** » !..

كيف كان هذا البلاء ... وما قصته ... وكيف وقع ؟!.

« **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** » ؟!

وهل وصل الى علمك خبر أولئك الخصوم ... إذ تسلقوا السور ... ودخلوا على داوود ... وهو في خلوته يتعبد في معبده ... لا يراه أحد إلا الله ؟!

نحن نقص عليك هذا النبأ ... كما كان وكما وقع ... لا كما قصه القصاص ... وجاءوا فيه بالأباطيل ... ونسبوا إلى عبدنا داوود ... ما لا ينبغي أن ينسب الى أنبيائنا ...

« **إذ دخلوا على داود** » وكان الوقت ليلاً ... في السحر ... والحراس على بيت الملك داوود ... يمنعون أحداً أن يدخل عليه ... فاقتحموا عليه ...

« **ففزع منهم** » فزعاً شديداً ... وظن أنها مؤامرة لقلب نظام الحكم ... فكيف دخل هؤلاء ... وأوامره صريحة مشددة ... ألا يدخل عليه أحد في هذا الوقت ... حيث يناجي ربه !..

«**قالوا لا تخف**» بادروا إلى ادخال السكينة عليه ... ليذهبوا عنه الروع ...

قال داوو : ما خطبكما ؟!

قالوا : « **خصمان** » نحن خصمان ... اختصمنا في أمر ... رأينا أن نحتكم اليك فيه ...

« **بغى بعضنا على بعض** » ظلم أحدنا الآخر ... وأصر الظالم على ظلمه ...

« **فاحكم بيننا بالحق** » بالعدل ... الذي يرد الحق الى صاحبه ...

« **ولا تشطط** » ولا تسرف ... ولا تبتعد عن الصواب ...

« **واهدنا** » ووجّهنا ...

« **إلى سواء الصراط** » الى الطريق الصحيح ... السويّ المستقيم ...

لغة عجيبة ... ليس مألوفاً أن تصـــدر عن المتخاصمين ... وهم في مواجهة القاضي ...

فكيف والقاضي هنا ... هو داوود ... الملك ... النبي ؟!.

انهم يوجهون الملك ... النبي ... بدلاً من التسليم له ... والخضوع لأمره !..

ان داوود بدأ يتوجس منهم . . متى كانت هذه هي لغة الجماهير ... حين يخاطبون ملكهم ونبيهم ؟!

يبدو أن أمر هؤلاء ... مؤامرة دُبرت بليل !..

قال داوود ... فيم تختصمون ؟!

قال أحدهم : « **ان هذا أخي** » والأخوة تقتضي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ...

« **له تسع وتسعون نعجة** » يملك تسعاً وتسعين نعجة ...

« **ولي نعجة واحدة** » لا أملك سواها ...

« **فقال اكفلنيها** » اعطنيها ... أضمها الى نعاجي ... ليكملوا مائة !..

« **وعزَّني في الخطاب** » وغلبني في الحـــوار ... لأنه منطيق ... وأنا لا أحسن الدفاع عن نفسي ...

ولم يتكلم الخصم الآخر ... ولم يبطل كلام صاحبه ... وإنما أقره !..

فغضب الملك النبي ... وحكم في القضية ...

« **قال** » داوود ...

« **لقد ظلمك** » ظلماً شديداً ... وبغي عليك بغياً عظيماً ...

« **بسؤال نعجتك** » بطلب ضم نعجتك الواحدة ...

« **إلى نعاجه** » الكثيرة ...

ثم كانت حيثيات ذلك الحكم النبوي ...

« **وإن كثيراً** » ودائماً الأكثرية الساحقة ...

« **من الخلطاء** » الذين يختلط بعضهم ببعض في المجتمع ... كثـــيراً من المتعاملين ...

« **ليبغي بعضهم على بعض** » ليظلم بعضهم بعضاً بغير حق ...

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فهؤلاء لا يقع منهم بغي ... وإنما يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ...

« **وقليل ما هم** » هؤلاء دائماً قليل ... في كل مجتمع ... أما الأكثرية ... فطبيعتهم أن يبغي بعضهم على بعض ...

وهذا النطق ... نموذج فريد ... لفصل الخطاب ... الذي آتاه الله عبده داوود ... ولذلك جاء في أعقاب قوله « **وفصل الخطاب** » مباشرة ... أي اليكم مثالاً من فصل الخطاب الذي آتيناه عبدنا داوود ...

منطوق الحكم :

« **لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه** » !..

ست كلمات ... معدودات ...

هذا نموذج فذ ... لفصل الخطاب ...

الحيثيات :

« **وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض**

« **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**

« **وقليلٌ ما هم** » !..

روعة ... اعجاز ... ايجاز ... هذا نموذج آخر ... لفصل الخطاب !..

ضع هـــذه الحيثيات ... وقارنها بالمطولات ... التي تصدر عن الحاكم والقضاة ... تدرك مدى الفارق البعيد ... بين منطق الأنبياء ... ولغو الناس !..

ثم تأمل معي ... الى الأحكام في الكلام ... بحيث يأتي موزوناً بموازين

الذرّ ... فلا زيادة عن الحقيقة ولا نقص ... ولكن قولاً فصلاً !...

تأمل هذه وحدها ... « **وقليل ما هم** » ... ثم طبقهـــا على مستوى كل زمان ومكان ... تجدها صالحة أبداً ... لكل زمان ومكان وإنسان ...

دائماً ... في كل مجتمع ... أهل الخير قليل ...

دائماً ... انه ناموس أبدي !..

وهكذا النبوة... وهذا مستواها... اذا تكلمت... وأفقها إذا تلألأت !..

وأخيراً ... ماذا حدث ؟!.

حدث أمر عظيم ...

اختفى الرجلان ... ونظر داوود من حوله ... فلم يجد لهما أثراً !..

ما هذا ... ما الخبر ؟!.

فأدرك داوود على الفور ... ان هؤلاء ليسوا من البشر ...

انهما مَلَكَان ... جاءوه في هيئة بشرية ...

وفاجأوه في خلوته ...

وأدرك على الفور أنه هو ذلك الرجل الذي له تسع وتسعين نعجة ...

لأن الله تعالى تجلى عليه بأسمائه الحسنى ... التسع والتسعين ...

فأعطاه بذلك ما لم يعط أحداً من العالمين ...

وأن الرجل الذي له نعجة واحدة ...

هو المسكين حقاً ... هو الذي يريد الدنيا ... ولا يتوجه الى الله ...

وأن اللائق به ... وهو النبي ... ألا يقع منه قط ... التفات إلى الدنيا...

انه بحر « **ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحيـــاة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** » !..

فـهم داوود على الفور !..

كأن الله يريد أن ينبهه الى انه أعطاه من كل شيء ... حين تجلى عليه بكل أسمائه ... ففضله على العالمين ...

ومن كان هذا شأنه ... لا ينبغي أن يلتفت أدنى التفاتة الى زينة الدنيا...

وما التفت داوود ...

وإنما هو أسلوب تربية ... وترقية ...

إلى درجات أعلى ...

وهؤلاء الأنبياء ... يرقيهم ربهم دائما وأبداً ...

فما التفت صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا حين قال له « **ولا تمدن عينيك** » وإنما هي ترقية إلى أعلى ...

لنتعلم من ورائه ... صلى الله عليه وسلم ... ان التطلع الى الدنيـــا ... والاعراض عن الله ... لا ينبغي أن يكون من عاقل !..

« **وظنّ داوود** » وأيقن عبدنا داوود ... على الفور ... حـــين اختفى الخصمان من أمامه فجأة ...

« **انما فتناه** » اختبرناه ... هل يليق بمن آتيناه من كل شيء ... وفضلناه على العالمين ... أن يلتفت قلبه عنا ؟!

فأيقن داوود ... أنه حكم على نفسه بنفسه ...

وان فضل الله عليه ... لا نهاية له ...

فترقى داوود ... ثم ترقى ...

وجعل قلبه يموج بحب الله موجاً ...

« **فاستغفر ربه** » فبادر الى طلب المغفرة ...

« وخرّ » فوراً ... خر قلبه لنا ... فخرّ بدنه تبعاً لقلبه ...

« راكعاً » معظماً لله ... لعظيم انعامه عليه ...

وخر ساجداً ... باكياً ... شاكراً لأنعامه ...

« وأناب » بكله وجزئه ... وظاهره وباطنه ... وروحـــه وبدنه ... وما كان منه ... وما سيكون ... لربه ... عسى أن يؤدي حق ذرّة واحدة ... مما ينبغي لجلال وجهه وعظم سلطانه ...

وعسى أن يؤدي حق ذرّة واحدة ... مما أنعم عليه ... وينعم ... وما سوف ينعم عليه ... وعلى كل شيء كان أو يكون !..

ثم ماذا ؟!

ثم هذا ذوق ... نذهب اليه ... في هذا الأمر ... عسى أن يكون مفتاحاً من الفتاح العليم ... في قضية من أخطر القضايا التي نُسبت إلى نبي الله داوود...

وذهبوا فيهـــا المذاهب ... وتناقلها كثير من المفسرين ... وكثير من القصاص ...

وزعموا ... ونعوذ بالله مما زعموا ... ان داوود ... خرج يوماً إلى سطح منزله ... فوقع بصره فجأة على زوجة أوريا ... تستحم عارية ... وكانت بارعة الجمال ... فوقعت من نفسه ... وضمها الى نسائه !..

وزعموا ان النعاج كناية عن النساء ...

وذهبوا في ذلك المذاهب ... وكان أخفهم اتهاماً ... من قال انها صارت له زوجة ... بعد أن مات زوجها أوريا في قتال الأعداء ...

ونقول : « **ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم** » !..

مما أعجبني ... قول من قال في هذه الفتنة ... أنها كانت لتنبيه داوود...

أن الجلوس للقضاء بين الناس ... أولى من التخلي للعبادة !..

هذا مذهب لا بأس به وجميل !..

فهو تنبيه الى داوود ... أن الله بعثه حاكماً ... ولم يبعثه عابداً ... أو راهباً ...

يحتجون في ذلك بقوله بعد سياق القصة ... « **يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ...** » !..

قد يكون هذا حقاً ...

ولكن الذي لا ينبغي ... ولا يحل لأحد ... ان ينسب إلى نبي من عظماء الأنبياء ... مثل قصة زوجة أوريا !..

والله أعلم !..

وإن له ... عندنا ...
لزلفى ...

هــذا ...

هو التاج ... الإلهي ... الذي وضعه الله ... على رأس عبده داوود ...

تبرئة له ... مما قالوا ...

وليعلم الجميع ... ان داوود ... فوق أوهامهم ... وما يفترون ...

« **وإن له** » تأكيد من الله ... وإن لداوود ...

« **عندنا** » تأكيد آخر ...

« **لزُلفى** لقربة ... لدرجات عالية ...

« **وحُسن مآب** » وأحسن مآب ... سوف يؤوب اليه ... انه الأوّاب...
الذي أمرنا الجبال له « **يا جبال أوّبي معه** » ...

انكم لا تعلمون : مَن داوود ؟!

نحن نعلمه ...

انه « **عبدنا داوود** » ...

كفوا ألسنتكم عنه ...

نحن نعلمه ...

ونقول جاء قوله تعالى ... بعد آيات الفتنة مباشرة ... التي تنتهي بقوله « **وخرّ راكعاً وأناب** » ...

قال بعدها مباشرة : « **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحُسن مآب** »!..

دفاعاً من الله ... عن نبيه وصفيه ... وعبده داوود ...

كأنه يراد أن يقال للناس ...

كيف تجيز عقولكم ... أن تظنوا بنبينا هذا الظن ؟!

كيف والأنبياء ... تحت رقابتنا ... وتحت ولايتنا ... وتحت أعيننا ...

كيف وقد جعلناهم مُثلاً عليا ... لكم ... أن تنسبوا اليهم ما لا يُنسب الى عوام الناس وغوغائهم ؟!

فجاء قوله سبحانه دفاعاً مجيداً عن عبده العظيم ...

وإن له عندنا لزُلفى ؟!.

انه من أقرب المقربين ...

انكم لا تفهمون عن الأنبياء شيئاً ...

ان أعظم البلاء للأنبياء... انهم يتخالطون مع الناس ... والناس لا يفهمون من حقائقهم شيئاً ...

الأنبياء غرباء ... أعظم الغرباء ...

حقائقهم ... من الأفق الأعلى ...

والناس ... في الأفق الأدنى ...

ولكن ُفرض عليهم ... أن يتنزلوا ... إلى واقع الناس ...

وها هنا الصعوبة ... وها هنا البلاء المبين ...

سلام على داوود ...

سلام على المرسلين ...

يا داوود . . . إنا جعلناك . . .

خليفة ...!؟

ابهــج ...

ما تكون شخصية داوود ... حين نتأمله ... مَلِكاً ... نبياً !..

ذلك ان فكرة خلق الإنسان أصلاً ... ان يكون خليفة ... « **اني جاعل في الأرض خليفة** » ...

هذه هي الفكرة أصلاً ... من خلق آدم ... وخلق ذريته من بعده ...

وداوود... باعتباره أحد الآدميين... المراد من خلقه أن يكون خليفة...

ومن هنا خاطبه ربه ...

« **يا داوود** » يا أيها المستغرق في عبادتنا... والثناء علينا... ومناجاتنا...

ما لهذا وحده خلقناك ... ولا بعثناك ...

فالكائنات جميعاً ... تعبدنا ... وتسبح لنــــا ... « **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** » ...

وإنما رسالتك الأولى ... ومهمتك العظمى ...

« **إنا جعلناك خليفة** » نائباً عنـــا ... تنوب عنا ... في اقامة العدل بين الناس ...

« **في الأرض** » في الدنيا ... في الحياة ... في واقع الناس ...

« **فاحكم** » فبادر الى أداء مهمتك الأولى ... وانزل الى الشعب ... وتفقد مشاكله بنفسك ...

« **بين الناس** » في واقعهم ... ولا تتركهم ... من أجل التفرغ لنا ...

فإن إقامة العدل في الناس أحب الينا ... من قيامك لنا ...

لأن الله غني عن العالمين ...

أما النـــاس ففي حاجة ... إلى السُّلطة التي ترد عنهم المظالم ... وتحق فيهم الحق ...

« **بالحق** » ومن أجل ذلك جعلناك خليفة ...

« **ولا تتبع الهوى** » وإياك واتباع هوى النفس ... حـــين تحكم بين الناس ... لماذا ؟

« **فيضلك عن سبيل الله** »

فيبعدك عن الخط المستقيم ...

« **ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ».

هذه هي رسالتك الأولى يا داوود ...

وإن عبوديتك لنا ... هذا تمامها وكمالها ...

ثم أعلن الله الى الناس جميعاً ... مخاطباً داوود ... لماذا كانت الحياة ... وما الهدف من خلقها ...

« **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما** » وما أوجدنا هـــذا التركيب العجيب ... من سماوات وأرضين ... وما بينهما من أجرام وكائنات ... ما ركبنا هذا البناء الضخم الفخم المحكم ...

« **باطلاً** » عبثاً ... أو لعباً ... أو بغير حكمة وهدف ...

« **ذلك ظن الذين كفروا** » انما يظن ذلك الذين كفروا ربهم ... يتوهمون ان الحياة لا هدف لها ولا تخطيط ...

« **فويل للذين كفروا من النار** » حين يُقذفون فيها ... يدركون ويعلمون لماذا كانت الحياة ... وأنها لم تكن باطلا ... وإنما كانت لحكمة عظيمة هي ...

« **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض** » هذه هي فكرة الحياة وهدفها... هو إظهار المؤمن من الكافر... الصالح من الطالح ... العابد لله من العابد لهواه ...

الحياة حق ... وتقديرٌ حق ...

الحياة امتحان ... يؤديه الناس ... ولها هدف عظيم هو ...

« **أم نجعل المتقين كالفجار** » كلا ... لن يكون هـــذا ... ولن يستوي الأتقياء والفجار ...

هؤلاء الى الجنة ... وهؤلاء الى النار ...

من أجل ذلك أرسلنا رسلنا ... وأنزلنا كتبنا ...

ومن أجل ذلك يا داوود ... جعلناك خليفة في الأرض ...

جعلناك حاكماً أعلى بين الناس ...

جعلناك في مقام الخلافة الأعظم ...

فأنت رئيس الدولة ...

وأنت نبي الأمة ...

وأنت القاضي بينهم في خصوماتهم ...

وأنت الداعي لهم الينا ...

وأنت المثل القائم أمامهم للاستقامة على أمرنا ...

جميل منك يا داوود ... أن تتوجه الينـــا ... عابداً ... ومسبحاً ... وقائماً ... وراكعاً ... وساجداً ...

هذا وجهك الينا ...

ولكن لك وجه إلى العباد ... يتطلعون كلهم اليه ... لتحكم بينهم بالحق...

فعليك بالتوازن التام ... بين حق الله عليك ... وحق الناس عليك ...

أرأيت ؟!.

انه نفس بحر قوله تعالى « **فاستقم كما أمرت** » !..

ما كان داوود إلا قائماً بالحكم بين الناس بالحق ...

ولكن مقام ترقية ...

أي ازدد يا داوود رقياً ...

وازدد عدلاً ... وازدد استقامة ... وازدد توازناً بـــين التوجه الينا ... والتوجه إلى العدل في الناس ...

أولئك الأنبياء ... أولئك العظماء ...

دائماً نحو الأعلى ... والأحسن ... والأرقى ...

كما قال للنبي الأعظم :

« **يا أيها النبي اتق الله** » ؟!.

أي ازدد تقوى ... وازدد رقياً ... وازدد سمواً وعلواً !..

حادث خطير ... في عهد ...
الملك داوود ...!؟

قصـــة ...

رهيبة ... عجيبة ... وقعت في عهد الملك داوود ...

وها هي تفاصيلها ...

« **وسألهم عن القرية** » عن المدينة ...

« **التي كانت حاضرة البحر** » التي كانت ميناء البحر الأحمر ... ميناء خليج العقبة ... وهي ميناء ايلات ... التي كانت مزدهرة بالحضارة ... عامرة بالتجارة ... يعيش اهلها ناعمين في أرزاقهم ...

« **إذ يعدون في السبت** » إذ يقع من بعض أهلها العدوان في يوم السبت ... المفروض عليهم فيه التفرغ لعبادة ربهم ... ويحرم عليهم فيه العمل الدنيوي ...

« **إذ تأتيهم حيتانهم** » إذ تقبل عليهم الأسماك المختلفة الأحجام في كثرة ... وفي أعداد وفيرة ... يسهل عليهم صيدها بكميات تغري النفوس .

« **يوم سبتهم** » يوم يسبتون لله ... ويسكنون لعبادته ... ويوم السبت هذا مقدس عندهم ... على مر الأجيال ... ويعملون جميعاً تحريم العمل فيه ...

« **شُرعا** » ظاهرة فوق الماء ... لا تحتاج إلى جهد في اصطيادها ...

وإنما كان هذا من الأسماك ... لأنهـا ألفت سكون البحر من حركة الصيادين ... في يوم السبت ... فتدافعت مطمئنة الى الشاطىء ... آمنة من مطاردة الصيادين ...

« **ويوم لا يسبتون** » ويوم لا يتفرغون لعبادتنا ... وفي سائر أيام الأسبوع غير يوم السبت ...

« **لا تأتيهم** » تختفي تماماً في البحر في سائر أيام الأسبوع ...

« **كذلك نبلوهم** » مثل هذا الاختبار العميق نختبرهم ...

« **بما كانوا يفسقون** » بسبب ما كانوا يستمرون على الخروج عن حدودنا ...

قال الطبري في تفسيره :

« وكانت الحيتان لا تأتيهم في غير السبت تسرّعا ، فإذا أمسى ذهبت ، فلا يرى شيء منها الى السبت الثاني ، فأخذوا خيوطاً وجعلوا يأخذون الحيتان في السبت ويربطونها في الخيوط إلى أوتاد في الماء ، ويتركونها فيه ، فإذا أمسوا ليلة الأحد أخرجوه فأكلوه » !..

هذه حيلة من حيلهم للاعتداء يوم السبت ...

واستمروا على ذلك زمناً فاستمرءوا المعصية ...

وذهبت مواعظ الصالحين منهم هباء ... ولم يلتفتوا اليها وسخروا منهم سخرية شديدة ...

« **وإذا قالت أمّة منهم** » جماعة منهم ...

« **لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً** » لا جدوى من تحذير هؤلاء المجرمين ... فكلما وعظتموهم ازدادوا اصراراً على اجرامهم ...

« **قالوا معذرة إلى ربكم** » سنستمر على تحذيرهم ... اعتذاراً الى الله عن أعمالهم ... حتى لا يعمنا معهم بعذاب ...

«**ولعلهم يتقون**» ولربما يأتي يوم ينتهون عن اجرامهم ويتوبون إلى ربهم...

« **فلما نسوا ما ذكروا به** » فلما غفلوا تماماً ... واستمروا على اجرامهم ... واستهانوا بتذكير اخوانهم ...

ماذا حدث ؟ !

نزل العقاب ... بالمجرمين ...

« **أنجينا الذين ينهون عن السوء** » لأنهم أدوا ما عليهم ... ولم يشاركوهم اجراماً ... ودأبوا على زجرهم ونهيهم ...

« **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس** » بعذاب شديد ...

فأصبحت المدينة ذات يوم ... فكانت المفاجأة ...

جميع الذين اعتدوا يوم السبت ... جميع الذين اصطادوا أو احتالوا على صيد الأسماك يوم السبت ... انقلبوا إلى قردة وخنازير ...

مُسخ الشباب منهم قردة ... والشيوخ منهم خنازير !..

« **بما كانوا يفسقون** » جزاء اجرامهم ... واستمرارهم على الإجرام ... وعدم مبالاتهم بأوامرنا ... واستخفافهم بزواجرنا !..

وهناك في سورة البقرة ... من كتاب الله ... يسجل هـــذه الحادثة عليهم فيقول :

« **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** .

« **فجعلناهم نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** » !..

كونوا ... قردة !..

فانقلبوا فوراً ... الى قردة ؟!.

انه أمر ... كن فيكون ...

وخرجوا من الهيأة الآدمية ... ورُدُّوا الى الهيأة القردية ...

كما انحطوا في تصرفاتهم الى مرتبة القرود ... التي لا تميز بين الخير والشر...

فكان جزاؤهم ... أن ينزلوا الى تلك المرتبة ... نزولاً عملياً ... فصدر الأمر ... كونوا قردة ...

لقد كرمناكم وجعلناكم بشراً ... وميزناكم بالعقل ... ووجهناكم الى ما فيه رفعتكم وشرفكم ...

فأبيتم الا سفولاً ... وهبوطاً ... وانحطاطاً ...

فانزلوا الى ما اخترتم لأنفسكم ...

وجعلناها نكالاً ... عقاباً ماثلاً أمام العالم كله ...

لما بين يديها وما خلفهـــا ... لمن كان في زمانها ... ومَن سوف يكون مستقبلاً !..

انها اللعنة ...

« أو نلعنهم كما لعَنّا أصحاب السبت ... » !..

وأما السادة الشيوخ ... فانقلبوا الى خنازير ...

« وجعل منهم القردة والخنازير » !..

تبلدوا ... وتعفنوا ... رغم كبر سنهم ... الذي كان مفروضاً أن يمنعهم عن مجاراة الشباب في هوسهم ...

اختاروا التبلد ... كما يشتهر الخنزير بالبلادة ... ويتلذذ القاذورات ...

فلينزلوا إلى اختيارهم ...

وليهبطوا فوراً الى حقارتهم ... وليكونوا خنازير !..

ان هذا المسخ الذي حدث في تلك الواقعة الرهيبة ...

هو تنفيذ عملي فوري ... لإهباطهم الى حقيقتهم ...

« وكان أمر الله مفعولا » !..

تلك هي الواقعة الرهيبة ... والحادثة الخطيرة ...

التي وقعت في عهد الملك داوود ...

ولعنهم داوود ... لاجرامهم ... وإصرارهم على الإجرام ...

« لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل

على لسان داوود ... » !..

وآتينا ... داوود ...
زبورا ...؟!

« وربك أعلم بمن في السماوات والأرض .

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض .

« وآتينا داوود زبورا » !..

فضّلنا داوود على بعض النبيين ... بذلك الفضل الكبير ... آتيناه كتاباً ... آتيناه زبورا . . أي كتاباً !..

ومن سورة النساء ... من كتاب الله الكريم :

« إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده .

« وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان .

« وآتينا داوود زبورا » !..

أي كما أوحينا إلى هؤلاء الأنبياء ... أوحينا الى داوود زبورا ... كتابه الذي اختصصناه به ...

والزبور لغة هو الكتاب ... ويُجمع على زُبُر ... أي كُتُب ...

ولكن لماذا النص على الزبور بالذات ، من بين ما أوحى الى الأنبياء ؟..

لعل السر في ذلك ... انه يراد ان يقال ... زيادة على ما ورثه داوود عن الأنبياء السابقين عليه من لدن ابراهيم حتى بعثناه نبياً .. فإنا قد آتيناه فضلاً عن هذه الثروة العريضة التي ورثها عن آبائه ... آتيناه منا فضلاً آخر ... ان زدناه الزبور خاصاً به هو ... فاجتمع له فضل خاص به ... بالإضافة إلى الفضل

العام الذي ورثه عن موسى وسائر الأنبياء من بعد موسى ... إلى داوود ...

وهذا فضل واضح ... تفضل الله به على داوود ... فهناك كثير من الأنبياء بُعثوا من بعد موسى ... ولكن لم يكن لهم كتاب خاص بهم ... وإنما تميز داوود عنهم بالزبور ... فضلاً عليه من ربه ...

« ولقد آتينا داوود منا فضلاً » !..

قالوا : أي نبوة وكتاباً هو الزبور ... وصوتاً بديعاً ... وقوة وقدرة...

ما أعظم هذا الفضل ...

ثروة ضخمة من الأنبياء والكتب من قبله...

ثم ثروة جديدة خاصة به ... هو الزبور ...

فاجتمع له فضل سابق ... وفضل خاص !..

ليس هذا وحده ... وإنما آتاه الله منه صوتاً جميلاً ...

حتى اشتهر أن داوود كان أجمل الأنبياء صوتاً ...

وبهذا الصوت البديع الجميل ... كان داوود يرتل الزبور ترتيلا ...

ويموج بصوته البديع ... إلى ربه موجاً ...

ولعل الإشارة إلى ذلك كذلك ... في قوله **« وآتينا داوود زبورا »** ... أي آتيناه أناشيد ينشدها لنا ...

وأغاريد يغردها لنا ... وآتيناه من أجل ذلك ... اجمل صوت ... ليغرد لنا تغريداً ...

جمال ... جمال عجيب ...

وفضل ... فضل عظيم ...

الأغرودة ... تُوحى اليه ...

والصوت الجميل ... يتفضل به عليه ...

لأن الذي قدّر انزال الزبور على داوود ... هو الذي قدّر ايتاء داوود الصوت الجميل ... ليتطابق عطاء الزبور ... مع عطاء الصوت الذي يغرد بأغاريد الزبور ...

فسبحان الذي أعطى ...

وفضلاً أعظم من ذلك كله ... وإن كان العقل لا يستطيع أن يتصور أن هناك فضلاً هو أعظم من ذاك ...

فضلاً عجيباً ... فاسمع واعجب ... وسبح ربك تسبيحاً !..

روى امام المحدثين ... في صحيحه ... صحيح البخاري ...

« عن أبي هريرة رضي الله عنه .

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« خُفف على داود عليه السلام القرآن .

« فكان يأمر بدوابه فتُسرَج .

« فيقرأ القرآن قبل أن تُسرج دوابه .

« ولا يأكل إلا من عمل يده » !..

يا أيها العقل اذهب وتبدد ...

هذه معجزة ... لا سبيل لك إلى فهمها ...

قالوا في تفسير الحديث :

« خُفف » من التخفيف .

« القرآن » القراءة ... وقيل القرآن أي التوراة أو الزبور ..

« وقد يطلق القرآن على القراءة ...

« وقرآن كل نبي يطلق على كتابه الذي اوحى اليه ...

« فكان » أي داود يأمر بدوابه وفي رواية ... بدابته ...

« قبل أن تُسرج » وفي رواية ... فلا تسرج حتى يقرأ القرآن ...

وفيه الدلالة على ان الله تعالى :

يطوي الزمان لمن يشاء من عباده ... كما يطوي المكان ...

وهذا لا سبيل إلا ادراكه إلا بالفيض الرباني ...

« وجاء في الحديث أن البركة قد تقع في الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير ...

« وقال النووي : أكثر ما بلغنا من ذلك من كان يقرأ ختمات بالليل وأربعاً بالنهار ...

« ولقد رأيت رجلاً حافظاً قرأ ثلاث ختمات في الوتر ، في كل ركعة ختمة ، في ليلة القدر ...

« قوله » « ولا يأكل إلا من عمل يده » وهو من ثمن ما كان يعمل من الدروع من الحديد بلا نار ولا مطرقة ولا سندان ، وهو أول من عمل الدروع من زرد وكانت قبل ذلك صفائح » ...

ما هذا ؟..

هذا أمر عجيب ... سيبادر المحجوبون بعقولهم ... إلى الحيرة في تفسيره ...

كيف ... يكون هذا ؟..

وأقول ... هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ...

ان داوود يتشعشع منه تفسير قوله تعالى **«ولقد آتينا داوود منّا فضلاً»** ...

منّا ؟!!

رأساً ... من فوق نواميسكم المعهودة ...
من وراء عقولكم ...
مينشا ؟..
مينشا ... نحن الله ... نفعل ما نشاء ... ونفعل ما نريد ... ونمُنّ على من نشاء من عبادنا ... ونتفضل على من نشاء ...
مينشا ؟..
جبالها رفيع رفيع رفيع ...
فضلاً ؟..
كتاباً جديداً ...
وصوتاً بديعاً ...
وطيّاً للزمان جميعاً ... فيقرأ هذا الكتاب في لحظات ...
قبل أن يُسرج له فرسه ... يكون داوود ... قد طوى زبوره طـ"ا
لا تقل ... كان يقرأ بقلبه ... لا تقل ...
ان العقل آلة محدودة ... تدرك المحدود ...
أما مثل تلك المعجزات ... فإنها وراء العقول ...
فتأمل مدى سعة الفضل الإلهي ... على داوود ؟..
زبور ... كتاب جديد ... أغاريد جديدة ...
صوت ليس كمثله صوت ... يغرد تلك الأغاريد ...
ثم الغاء الزمان ... فيقع ذلك كله ... في لحظات ...
عليه السلام ... لقد كان آية ... وحياته آيات ...
ثم ماذا ؟..

ماذا قال أئمتنا الأقدمون ؟.

قالوا : « قوله (زبورا) هو اسم الكتاب الذي أنزل الله عليه ...

« عن ابن عباس قال : أنزل الله الزبور على داود عليه الصلاة والسلام ، مائة وخمسين سورة بالعبرانية ، في خمسين منهـــا ما يلقونه من بختنصر ، وفي خمسين ما يلقونه من الروم ، وفي خمسين مواعظ وحكم ، ولم يكن فيه حلال ولا حرام ولا حدود ولا أحكام » .

هذا قول منسوب الى ابن عباس رضي الله عنه ...

إذ ليس في الزبور فرائض ولا حـــدود ... لأن داوود شريعته هي التوراة ... وأحكام الأنبياء من قبله ...

وإنما كان الزبور زيادة فضل ... موجة إلهية ... يترنم بهـــا داوود إلى ربه ...

كان الزبور ... ثناء على الله من داوود ...

تسبيح لله ... تمجيد لله ...

شكر لله ... على ما أنعم وأعطى ...

مواعظ ... تلين لها القلوب ... وتدمع لها العيون ...

تسجيل لما كان من انتصارات على الأعداء... بفضل من الله... يستوجب الشكر والتعظيم ...

صراخ إلى الله ... في المـــآزق والأزمات ... أن ينصر عبده ... على أعدائه ...

وإن أهل الكتاب ليسمونه « المزامير » ...

ومن هذه المزامير ... نختار بعضها ... ونسجله هنا ...

لنأخذ فكرة عن نظم المزامير ... وأسلوبها ...

ومما طربت له طرباً عظيماً ... ان ابن عباس قال هو « مائة وخمسين سورة » ...

وقد وجدته عند أهل الكتاب ... مائة وخمسين مزموراً !..

فقلت الحمد لله ... ليس هناك اختلاف !..

المزمور الأول

« طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس .

« لكن في ناموس الرب مسرته وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً .

« فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه .

« التي تعطي ثمرها في أوانه .

« وورقها لا يذبل .

« وكل ما يصنعه ينجح .

« ليس كذلك الاشرار لكنهم كالعُصافة التي تذريها الريح .

« لذلك لا تقوم الأشرار في الدين ولا الخطاة في جماعة الأبرار .

« لأن الرب يعلم طريق الابرار .

« أما طريق الاشرار فتهلك » .

فإذا تأملت عبارة «فيكون كشجرة مغروسة ... تعطي ثمرها في أوانه»...

تجد أن فيها شيء من نور قوله تعالى ... في كتابه العظيم ... القرآن الكريم ... المهيمن على ما سبقه من الكتب ...

فيها من نور قوله تعالى :

«ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

« تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » ...

وتأمل ما جاء في هذا الزبور الأول « تعطي ثمرها في أوانه » ...

وقوله تعالى « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها »؟..

« ثمرها في أوانه » ...

« أكلها كل حين » ...

تشابه عجيب !..

إلا أن القرآن معجز لفظاً ومعنىً ... لا تبديل لكلمات الله ...

وأعلى وأشمل ...

ومهيمناً على الكتب من قبله !..

ولا أطيل في هذه المقارنات ... لأن القرآن العظيم ليس كمثله كتاب !..

وواضح ان هذا المزمور ... فيه حكمة ... وأمثال ... وعظة ... وتوجيه ...

نموذج آخر ...

المزمور الحادي والثلاثون

« عليك يا رب توكلت .

« لا تدعني أخزى مدى الدهر .

« بعدلك نجني .

« أمل إليّ اذنك .

« سريعاً أنقذني .
« كن لي صخرة حصن بيت ملجإ لتخليصي .
« لأن صخرتي ومعقلي أنت .
« من أجل اسمك تهديني وتقودني .
« أخرجني من الشبكة التي خبأوها لي .
« لأنك أنت حصني .
« في يدك أستودع روحي .
« فديتني يا رب إله الحق .
« أبغضتُ الذين يراعون أباطيل كاذبة .
« أما أنا فعلى الرب توكلت .
« أبتهج وأفرح برحمتك لأنك نظرت إلى مذلـــتي وعرفت في الشدائد نفسي .
« خسفَتْ من الغم عيني .
« نفسي وبطني .
« لأن حياتي قد فنيت بالحزن وسنيني بالتنهد .
« ضعفت بشقاوتي قوتي وبليت عظامي .
« عند كل أعدائي صرت عاراً وعند جيراني بالكلية ورُعباً لمعارفي .
« الذين رأوني خارجاً هربوا عني .
« نُسيت من القلب مثل الميت .
« صرت مثل إناء مُتلف .
« لأني سمعت مذمة من كثيرين .

« الخوف مستدير بي بمؤامرتهم معاً عليّ .
« تفكروا في أخذ نفسي .
« أما أنا فعليك توكلت يا رب .
« قلتُ إلهي أنت .
« في يدك آجالي .
« نجني من يد أعدائي ومن الذين يطردونني .
« أضيء بوجهك على عبدك .
« خلصني برحمتك .
« يا رب لا تدعني أخزى لأني دعوتك(١) .
« ليخزَ الأشرار .
« ليسكنوا في الهاوية .
« لتَبْكَم شفاه الكذب المتكلمة على الصدّيق بوقاحة بكبرياء واستهانة .
« ما أعظم جودك الذي ذخرته لخائفيك .
« وفعلته للمتكلمين عليك تُجاه بني البشر .
« تسترهم بستر وجهك من مكايد الناس .
« تخفيهم في مظلة من مخاصمة الالسن .
« مباركٌ الرب لأنه قد جعل عجباً رحمته لي في مدينة محصّنة .
« وأنا قلت في حيرتي إن قد انقطعت من قدام عينيك .
« ولكنك سمعت صوت تضرعي إذ صرخت اليك .

---

(١) تشبه إلى حد بعيد قوله تعالى : « ولم أكن بدعائك رب شقياً » ا ه .

« أحيِبُوا الرب يا جميع أتقيائه .
« الرب حافظ الأمانة ومجازٍ بكثرة العامل بالكبرياء .
« لتتشدّد ولتتشجع قلوبكم يا جميع المنتظرين الرب » .
وإذا تأملنا قول داوود في هذا المزمور « أضِيء بوجهك على عبدك » ...
تذكرنا حديث : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » !..
ونموذج آخر ... من مزامير داوود ... أو الزبور ...

المزمور السادس والستون

« اهتفي لله يا كُل الارض .
« رنموا بمجد اسمه .
« اجعلوا تسبيحه ممجداً .
« قولوا لله ما أهيب أعمالك .
« من عظم قوتك تتملق لك أعداؤك .
« كل الارض تسجد لك وترنم لك .
« ترنم لاسمك .
» سِــــلاه .
« هلم انظروا أعمال الله .
« فعله المرهب نحو بني آدم .
« حوّل البحر إلى يبس وفي النهر عبروا بالرجل .
« هناك فرحنا به .
« متسلط بقوته إلى الدهر .

« عيناه تراقبان الأمم .

« المتمردون لا يرفعُن انفسهم .

« سـلاه .

« باركوا إلهنا يا أيها الشعوب وسمعوا صوت تسبيحه .

« الجاعل أنفسنا في الحياة ولم يُسلم أرجلنا إلى الزلل .

« لأنك جربتنا يا الله .

« محصتنا كمحص الفضة .

« أدخلتنا إلى الشبكة .

« جعلت ضغطاً على متوننا .

« ركّبت أناسا على رؤوسنا .

« دخلنا في النار والماء ثم أخرجتنا إلى الخصب .

« ادخلُ إلى بيتك بمُحرقات أوفيك نذوري .

« التي نطقت بها شفتاي وتكلم بها فمي في ضيقي .

« أصعد لك مُحرقات سمينة مع بخور كباش أقدّم بقرا مع تيوس .

« سـلاة .

« هلم اسمعوا فأخبركم يا كلّ الخائفين الله بما صنع لنفسي .

« صرختُ اليه بفمي وتبجيلٌ على لساني .

« ان راعيت اثما في قلبي لا يستمع لي الرب .

« لكن قد سمع الله .

« أصغى إلى صوت صلاتي .

« مباركٌ الله الذي لم يُبعد صلاتي ولا رحمته عني » .

وهذه الكلمات الأخيرة : « مبارك الله الذي ... » ...

فيها من أنوار قوله تعالى : « تبــارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

ان « مبارك الله الذي » ...

تدخل تحت مظلة قوله سبحانه « تبارك الذي » !..

وقول داوود ... في هذا المزمور : « كل الأرض تسجد لك وترنم لك » ...

تدخل تحت اشعاعات قوله تعــالى : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » !..

وقول داوود في هذا المزمور « عيناه تراقبان الأمم » ...

تقع تحت ظلال قوله تعالى : « ... إن الله كان عليكم رقيباً » !..

ثم ماذا ؟.

ثم ها هو نموذج آخر ... من مزامير داوود ... أو الزبور ...

المزمور السادس والثمانون

– صلاة لداوُد –

« أمِل يا رب اذُنك .

« استجب لي » .

« لأني مسكين وبائس أنا .

« احفظ نفسي لأني تقي .

« يا إلهي خلّص أنت عبدك المتكل عليك .

« ارحمني يا رب لأنني اليك أصرخ اليوم كله .

« فرّح نفس عبدك لأنني اليك يا رب أرفع نفسي .

« لأنك أنت يا رب صالح وغفور وكثير الرحمة لكل الداعين اليك .

« اصغ يا رب إلى صلاتي وأنصت الى صوت تضرعاتي .

« في يوم ضيقي أدعوك لأنك تستجيب لي .

« لا مِثل لك بين الآلهة يا رب ولا مثل أعمالك .

«كل الامم الذين صنعهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجدون اسمك.

« لأنك عظيم أنت وصانع عجائب .

« أنت الله وحدك .

« علمني يا رب طريقك أسلُك في حقك .

« وحّد قلبي لخوف اسمك .

« أحمدك يا رب إلهي من كل قلبي وأمجّد اسمك الى الدهر .

« لأن رحمتك عظيمة نحوي وقد نجيتَ نفسي من الهاوية السفلى .

« اللهم المتكبرون قـــد قاموا عليَّ وجماعة العتاة طلبوا نفسي و يجعلوك امامهم .

« أما انت يا رب فاله رحيم ورؤوف طويل الروح وكثير الرحمة والحق .

« التفتْ إليَّ وارحمني .

« اعط عبدك قوتك وخلّص ابن امتك .

« اصنع معي آية للخير فيرى ذلك مبغضيّ فيخزوا لأنك أنت يا رب أعنتني وعزّيتني » .

ان داوود هنا ... يناجي ربه ...

فتتلألأ حقيقته ... بلا حجاب ...

لأن المقام ليس مقام داوود والخلق ... وإنما داوود والرب ...

وفي المناجاة ... يخلع العبد حجابه ...

لأنه أمام من يراه ... ظهراً لبطن ... وبطناً لظهر ...

قول داوود هنا : « لا مِثل لك ... ولا مِثل أعمالك » ...

يدخل تحت اشعاعات ... قول الله تعالى المعجز :

« ... ليس كمِثْله شيء » !..

ولكن الفارق بعيد بعيد ...

فما قاله داوود ... جزء من كل ... وقطرة من بحر... وذرّة من مجرّة...

أين « لا مِثل لك ... ولا مِثل أعمالك » ...

من « ليس كمِثله شيء » ؟!.

فكر طويلا ... تدرك شيئاً ... من الفارق البعيد ...

لقد جاء داوود بأقصى ما يستطيع عبد من الثناء والتنزيه لربه ...

ولكن حين يتكلم الله عن ذاته ... يكون كلامه تعالى شيئاً فوق إدراك البشر ...

ويكون فرق ما بين كلامه وكلام عباده ... كالفرق بين الله والناس !..

ونختم هذه النماذج ... من مزامير داوود ... أو الزبور ... بمقتطفات من المزامير الأخيرة ...

من المزمور المئة والثامن والأربعين

« هللويا .

« سبحوا الرب من السماوات سبحوه في الأعالي .

« سبحوه يا جميع ملائكته سبحوه يا كلّ جنوده .

« سبحيه يا ايتها الشمس والقمر سبحيه يا جميع كواكب النور .

« سبحيه يا سماء السماوات ويا أيتها المياه التي فوق السماوات .

« لتسبح اسم الرب لأنه أمر فخُلقت .

« وثبتها إلى الدهر والأبد .

« وضع لها حداً فلن تتعداه

« سبحي الرب من الارض يا ايتها التنانين وكل اللجج .

« النار والبَرَد الثلج والضباب الريح العاصفة الصانعة كلمته .

« الجبال وكل الآكام الشجر المثمر وكل الأرز .

« الوحوش وكل البهائم الدبابات والطيور ذوات الأجنحة .

« ملوك الارض وكل الشعوب الرؤساء وكل قضاة الارض .

« الاحداث والعذارى أيضاً الشيوخ مع الفتيان .

« ليسبحوا اسم الرب لأنه قد تعالى اسمه وحده .

« مجده فوق الأرض والسماوات » ...

ان داوود هنا... يهتف على مستوى الكون كله ... وينادي أهل السماوات وأهل الأرض ... وما وراءهما ... ان يسبحوا اسم الرب ...

ينادي المراتب كلها ... علويها وسفليها ...

ان يفردوا أجمعين أغرودة واحدة ... لربهم أجمعين ...

انها النبوة ... تتحدث ... وتمجد ربها ... في توحيد شامل عام ...

الكل فليسبح ... ولينشد نشيداً واحداً ... لرب واحد ... خالق كل شيء ... فليسبحه كل شيء كان أو يكون ...

لماذا ؟!.

« لأنه أمَرَ فخُلِقَت » !..

انها تدخل تحت اشعاعات قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » !..

وانظر ها هنا ... في هذا المزمور إلى قوله : يا سماء السماوات ويا أيتها المياه التي فوق السماوات » ...

وانظر اليها في اشعاعات قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » !..

ان داوود ها هنا ... يتصاعد ويتصاعد ... ويمتد ويمتد ... وينظر إلى الوجود بالعين الكلية ...

فالكائنات جميعاً ... كون واحد ... يستوي على عرشها إله واحد !..

ثم ماذا ؟..

ثم نقتطف هذه الموجة الجميلة ... من المزامير ... لتكون حسن الختام ... مما قدمناه من المزامير ...

المزمور المئة والخمسون

هَلِّلُويا .

« سبحوا الله في قدسه .

« سبحوه في فلك قوته .

« سبحوه على قواته .

« سبحوه حسب كثرة عظمته .

« سبحوه بصوت الصُّور سبحوه برباب وعُود .

« سبحوه بدف ورقص .

« سبحوه بأوتار ومزمار .

« سبحوه بصُنُوج التصويت .

« سبحوه بصُنوج الهتاف .

« كل نسمة فلتسبح الرب .

«« هَلِّلُويا » .

وأخيراً ... وليس آخرا ...

لو ذهبنا نتتبع المزامير المائة والخمسين ... شرحا ... وتسبيحا ... ومقارنة ... لخرج هذا الكتاب عن هدفه ... وإنما حسبنا هذه النماذج القليلة من المزامير ... وقد يكون في القطرة كل ما في البحر من عناصر ...

ويمكن أن نقول ... ان هذا الفصل كله من الكتاب ... هو مجرد إشارة إلى قوله تعالى :

« وآتينا داوود زبورا » !..

الملك . . . الصائم ...؟!

أمرهم ...

أولئك العظماء ...

أولئك الأنبياء ...

كله عجب !..

فمن المعلوم ان الملوك ... ملوك الدنيا ... يستمتعون بأبهة الملك ... ولائم ... حفلات ... مآدب ... زينة ... مواكب ... تحيات وتعظيمات ... إلى آخر بروتوكولات الملوك ...

ولكن الأنبيـــاء إذا صاروا ملوكاً لا يلهيهم الملك وزينته ... عن كونهم لله عباداً ...

ومن هنا كان الثناء على داوود « **واذكر عبدنا داوود** » ...

أي انه يعمل مَلكاً ... ولكنه ما زال عبداً ...

والعبودية لله ... تمنعهم أن يلتفتوا عن الله طرفة عين .

ومن باب أولي تمنعهم ... عن التعلق بزينة المُلك ... **وتراهم في المُلك** ... وليسوا منه في شيء !..

« عن عبد الله ابن عمْرو قال :

« قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أحب الصيام إلى الله صيام داود .

« كان يصوم يوماً ويفطر يوماً .

« وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود .

« كان ينام نصف الليل .

« ويقوم ثلثه .

« وينام سدسه » .

[أخرجه البخاري]

ذلكم النبي المَلك ... داوود !..

« كان يصوم يوماً » هو هكذا دائماً ...

« ويفطر يوماً » يوم إفطار ... ويوم صيام !..

وهذا شيء لا يستطيعه الملوك ... لأن للملك مقتضيات تمنع الملوك من أن يعيشوا دائماً ... في صيام ...

ولكن الأنبياء أنبياء ... قبل أن يكونوا ملوكاً ... فإذا صاروا ملوكاً ... كانت النبوة حاكمة على المُلك ... وليس العكس !..

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أحب الصيام إلى الله صيام داود » ... يشير إلى أن داوود أحب عباد الله إلى الله ... في زمانه ...

لأن مَن كانت صفاته أحب الى الله ... كان هو نفسه أحب الى الله ...

لأن الشخصية لا تتجزأ ... فمن كانت أفعاله هي أحب الأفعال الى الله ... كان صاحب هذه الأفعال أحب العباد إلى الله ...

ويؤكد لنا ذلك ... ذلك الحديث :

« عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال :

« أُخبِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني اقولُ والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت .

« فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : انت الذي تقول والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشتُ ؟

« قلت : قد قلته .

« قال : إنك لا تستطيع ذلك .

« فصُم وأفطر .

« وقم ونم .

« وصم من الشهر ثلاثة ايام ، فان الحسنة بعشر امثالهـــا وذلك مثل صيام الدهر .

« فقلت : اني اطيق افضل من ذلك يا رسول الله .

« قال . فصُم يوماً وأفطر يومين .

« قال : قلت : اني اطيق افضل من ذلك .

« قال : فصُم يوماً وأفطر يوماً .

« وذلك صيام داود .

« وهو عَدْل الصيام .

« قلت : اني أطيق أفضل منه يا رسول الله .

« قال : لا أفضل من ذلك » .

[أخرجه البخاري]

شهادة شريفة ... من أشرف الأنبياء ...

لنبي الله داوود ... عليه السلام ...

« لا أفضل من ذلك » ؟!.

أي ما اختاره داوود ... هو أفضل اختيــــار ... وأرقى أسلوب من أساليب الصيام ...

هو كما قال صلى الله عليه وسلم : « أحب الصيام إلى الله صيام داود » !..

أي أرقى الصيام عند الله ... صيام داوود !..

لأن من صام الأيام كلها متواصلات ... ألف هذا الأسلوب من الحياة ... فلا يُعتبر في الحقيقة صائماً ...

وإنما الصعوبة ... أن تصوم يوماً ... ثم تكسر عادتك وتفطر يوماً ... ثم تكسر ما ألفت وتعود صائماً ...

فها هنا تتقلب بين الاطلاق ... والتقييد ... فتترقى إلى أعلى ...

وتستمكن من نفسك ... تكبحها متى شئت ... وتطلقها متى شئت ... فتتحقق المجاهدة ... وتجوع يوماً ... وتشبع يوماً ...

واختيار الأنبياء دائماً ... هو أعلى اختيار !..

ثم ماذا ؟!.

ثم نعود إلى صائمنا الكريم ... نبي الله الكريم ... داوود عليه السلام ...

انه مَلِك ... والمُلك مهمة شاقة ... تستلزم خــــوض الصعاب ... ومخالطة الناس ...

ومشاركة الملوك أساليب حياتهم ...

وهنا هنـــا الصعوبة ... أن يصادم داوود ... كل ما عليه الملوك ... ويأوى إلى ربه ...

يصوم يوماً ... ويفطر يوماً ...

هذه هي العظمة ... ان يكون المُلك بإمكانياته كلها ... تحت يديك ... ورهن إشارتك ...

ثم تترك ذلك كله ... وتُمسك عن الطعام ... طيلة يومك ... ابتغاء مرضاة الله ...

ان الله ها هنا أحب اليه مما سواه ...

ثم يزداد حُباً ثم حُباً لربه ...

فيكون أسلوبه هكذا ... طيلة حياته ... يصوم يوماً ... ويفطر يوماً...

عزيمة خارقة ... وإرادة جبارة ...

انها إرادة نبي ... وما أدراك ما إرادة الأنبياء !..

فهل وقفت عظمة النبي الملك ... عند هذا ؟!.

كلا ... اليك ما هو أعجب وأغرب !..

الملك ... القائم ...؟!

في ...

حديثه صلى الله عليه وسلم يقول :

« وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود .

« كان ينام نصف الليل .

« ويقوم ثلثه .

« وينام سُدُسه » .

[أخرجه البخاري]

ذلكم داوود ...

وذلكم ليل داوود ...

هو هكذا طيلة حياته ...

قائم طيلة السحَر ... من كل ليلة لربه !..

لأن قيــــام الليل بالنسبة إلى الأنبياء ... نظام لازم ... واجب ... بل مفروض ...

« يا ايها المـُزمّل .

« قم الليل إلا قليلاً .

« نصفه او انقص منه قليلاً .

« او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » .

والأمر الصادر هنا إلى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ...

جعل قيام الليل ... فريضة ...

لماذا ؟!.

« إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » !..

يحتم اعدادك اعداداً خاصاً ... فوق مستوى البشر ...

لتتحمل الوحي ... وتصبر على مشاق التبليغ ...

وداوود ... نبي ... فعليه أن ينتظم على سلوك الأنبياء ...

هذا عن ضرورة قيام الليل ... لكل نبيّ ...

ولكن هناك دافع وراء ذلك ...

دافع هو في الحقيقة ... حقيقة قيام الليل ... بالنسبة إلى الأنبياء ...

إنه الحُبّ ...

والحب لا يطيق فراق محبوبه ...

والأنبياء أشد الناس حُباً لله ...

فيدفعهم ذلك الحبّ ... أن يبادروا إذا جنّ الليل ... وهجعت العيون ... إلى ربهم ...

فقيام الليل عند الأنبياء ... أحب لحظات اليوم كله اليهم ...

وداوود ... نبي من الأنبياء ... يحركه الحب إلى ربه ...

فيقوم لله ... كل ليلة ... في السحَر ...

يؤوّب تأويباً !..

ما منعه المُلك ليلة ... عن قيام الليل ...

والمُلك مسؤوليات ... ولكن حب الله ... أحب اليه من كل شيء !..

ماذا كان يقول داوود .... في قيامه كل ليلة لربه ؟!.
الله أعلم ...
ولكن أغلب الظن .... أنه كان يقرأ شيئاً من الزبور.... يمجد فيه ربه ويثني عليه ويعظمه تعظيماً !..
وأغلب الظن .... أن قيامه كان يجمع بين أنواع التوجه كلها ....
تارة قراءة ... وتارة ركوعاً ... وتارة سجوداً ...
وتارة دعاء ... وتارة ثناء .... وتارة تمجيداً ...
ولكن يبقى الأمر سراً ... بين الله وعبده داوود ....
انها لحظات الحُبّ ...
يتجلى الله عليه فيها .... بما شاء ....
ويتلألأ داوود فيها .... بما شاء له ربه ....
ولا مدخل لأحد .... بينهما ....
انه الله .... وعبده .... لا ثالث لهما !..
وانظر ها هنا .... شيئاً مما كان يقوله خاتم النبيين في قيامه بالليل :
« عن ابن عباس :
« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول :
« اللهم لك الحمد .
« أنت نور السماوات والأرض .
« ولك الحمد أنت قيام السماوات والأرض .
« ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهم .
« أنت الحق .
« وقولك الحق .
« ووعدك الحق .
« ولقاؤك حق .

« والجنة حق .

« والنار حق .

« والساعة حق .

« اللهم لك أسلمت .

« وبك آمنت .

« وعليك توكلت .

وإليك أنبت .

« وبك خاصمت .

« وإليك حاكمت .

« فاغفر لي ما قدمت وأخرت .

« وأسررت وأعلنت .

« أنت إلهي لا إله إلا أنت » .

[أخرجه أبو داود]

إنه مقام ...

رب ... وعبد ...

وعبد ... ورب ...

إنه مقام : « ومن الليل فتجهد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً .

لحظات قيام الليل عند الأنبياء ... لحظات الحُبّ ...

وما أدراك ما حُب الأنبياء ...

ثم ما أدراك ما حُب الأنبياء ؟!.

الملك ... يأكل ...

من عمل يده ...؟!

وهـــذه ...

أعجب وأعجب ...

المَلك ... يطلب إلى الله ... أن يأكل من عمل يده ...

فمن من ملوك الدنيا ... يفعل ذلك ؟!

ولكنه نبي الله داوود !..

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« خُفّف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتُسرج فيقرأ القرآن قبل أن تُسرج دوابه .

« ولا يأكل إلا من عمل يده » .

[أخرجه البخاري]

والفقرة التي نركز عليها هنا ... هي قوله صلى الله عليه وسلم :

« ولا يأكل إلا من عمل يده » ؟!!

المَلك ... ذو الملك العريض ...

لا يأكل ... إلا من عمل يده ؟!.

هذه قوة عجيبة ... من شخصية داوود !..

فلو أخذ أجراً ... على مهمة المُلك ... فإن هذا حلال وجائز ... لأنه

منقطع لوظيفته السياسية ورئاسة الدولة ...

ولكن هو فوق الجائز ... ووراء الحلال ...

انه يريد أن يكدح ... ويعرق ... ويأكل من عمل يده ...

لا يريد أن تفوته فضيلة واحدة من الفضائل ...

« لا يأكل إلا من عمل يده » وهو من ثمن ما كان يعمل من الدروع من الحديد ...

ما قصة ذلك ؟!.

قال تعالى :

« ولقد آتينا داوود منّا فضلاً .

« يا جبالُ أوّبي معه والطيرَ .

« وألنّا له الحديد .

« أن اعمل سابغات وقدّر في السرْدِ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير » .

« وألنّا له الحديد » فصار في يده مثل الشمع .

وكان سأل الله أن يسبب له سبباً يستغني به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله ، فألان له الحديد .

« ان اعمل سابغات » ان اصنع دروعاً سابغات أي كوامل واسعات .

« وقدّر في السرْد » أي لا تجعل المسامير دقاقاً ولا غلاظاً ...

أي : لا تدق المسامير فيتسلسل ، ولا تغلظها فيفصمها ... ويقطعها ...

« واعملوا صالحاً » والعمل الصالح بالنسبة إلى نبي كداوود ... أن يأكل من عمل يده ... فإنه أرقى وأزكى وأشرف ...

وقال تعالى :

« وعلمناه صَنعَةَ لَبُوسٍ لكم لتُحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » .

« وعلمناه » وعلمنا داوود عليه السلام...

« صنعة لَبوس » اللبوس عند العرب: السلاح كله ، كان دِرعاً أو جَوْشناً، أو رمحاً ، وهو في هذا الموضع : الدرع .

« وقيل : كان داود ــ عليه السلام ــ أول من سَرَدَ الدرع .

« لتحصنكم من بأسكم » لتُحرِزكم إذا لقيتم فيه أعداءكم ؛ والبأس : القتال .

أي : وعلمنا داوود صناعة السلاح ... بأنواعه ...

فبرع في صناعة الدروع... وذلك بفضل آتيناه ... أن ألنّا له الحديد...

فجعل يشكل منه الدروع ... كيفما شاء ...

وباع انتاجه ... وصنعة يده ...

وأكل من عمل يده !..

ولنذكر هنا.. حين جاء الغلام داوود... ساعة خروجه لمبارزة جالوت...

وكيف ألبسه طالوت ... ملابس الحرب ... فتعثر فيها لعدم سابق عهده بها ... وألقاها عنه ...

وها هو الآن يتخصص في صناعة السلاح ... ويبرع في صناعة الدروع ... ويبتكر منها أصنافاً لا تؤثر فيها السيوف ولا الرماح !..

الملك . . . لا يفرّ . . .

إذا لاقى . . . !؟

صفة عليا . . .

بالإضافة إلى صفاته العليا السابقات . . .

« عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

« قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ألم أُنبأ أنك تقوم الليل وتصوم النهار .

« فقلت : نعم .

« فقال . فانك إذا فعلتَ ذلك هجمت العين ونفهت النفس .

« صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر .

« أو كصوم الدهر .

« قلت : إني أجدُ بي .

« قال مِسعر : يعني قوةً .

« قال : فصُم صوم داود عليه السلام .

« وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً .

« ولا يَفرُّ إذا لاقى » .

[أخرجه البخاري]

« هجمت » أي غارت .

« نقِهت » أي ضعفت :

« ولا يفر إذا لاقى » بيان ان صومه ما كان يضعفه عن الحرب .

هذا شيء عجيب !..

رجل دائماً ... يصوم يوماً ... ويفطر يوماً ...

ولا يفر في الحرب إذا لاقى عدوه ...

بل هو أسرع الناس إلى لقاء الأعداء ... مهما كانوا ... ومهما كان الخطر؟!.

ولقد رأيناه غلاماً ... حين تراجع الجميع ... وعلى رأسهم طالوت ... حتى قالوا « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ...

وجعل جالوت كل يوم ... يخرج في تيـــه وفخر ... ينادي : هل من مبارز ...

ولا أحد يجرؤ على الخروج اليه ...

حتى جاء ذلك الغلام ... وخرج اليه ... وصرعه ... واستل سيف جالوت من جالوت ... وقطع رقبته بسيفه !..

فما دليل ذلك ؟!.

دليله ان هؤلاء الأنبياء ... أوتوا قوة ليس كمثلها قوة في البشر ...

انهم لا يخافون أحداً إلا الله ...

فإذا كانت الحرب ... كانوا أول من يقاتل ... وأجرأ من يحارب ...

ولو وقفت الدنيا كلها تتحداهم ...

واضح ذلك ... في جميع معارك داوود ...

منذ موقفه الخالد « وقتل داوود جالوت » ... إلى آخر حياته ...

ما دخل معركة إلا كان على رأس جيشه ...

وأسبق فرسانه إلى لقاء العدو ...

« ولا يفر اذا لاقى » ؟!.

بطولة ليس كمثلها بطولة ...

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ... » !..

تجد تلك البطولة واضحة ... حين وقف ابراهيم وحده ... والدولة كلها وعلى رأسها نمروذ ... وهو شامخ لا يتزلزل أمامهم ...

وتجده واضحاً ... حـــين حشد فرعون جميع الدولة وهو على رأسها يوم الزينة ...

ووقف موسى وحده ... أمامهم ... لا يتزحزح ...

ثم ها هو نفس الأمر ... في داوود ... حين خرج الى جالوت وجيشه ... وحده ... بلا سيف ولا رمح ... وجندله في دمائه !..

وهكذا ... رأيناه ملكاً ...

ولكن ... صائماً ...

ورأيناه ... ملكاً ...

ولكن ... قائماً ...

ورأيناه ... ملكاً ...

ولكن ... يأكل من عمل يده ...

ثم ها نحن نراه ... ملكاً ...

ولكن ... لا يفر إذا لاقى ...

تلك المفاتيح العُلى ... من شخصية داوود ...

وكم لشخصيته من مفاتيح !..

اعملوا ... آل داوودَ ...
شكراً ...؟!

حيّرني ...

قوله تعالى : « ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير وألنا له الحديد .

« ان اعمل سابغـــاتٍ وقـَدِّر في السرْد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير » .

والذي حيّرني ... هو قوله « وألنـّا له الحديد » ...

ذهب المفسرون القدامى أن إلانة الحديد لداوود ... ان جعله الله في يده كالشمع يشكـّل منه ما يشاء من دروع سابغات ... ذوات مسامير وحِلـَق ... إلى آخر ما قالوا ... بدون مطارق أو سندان أو ايقاد لنيران ...

قد يكون هذا صحيحاً ... كمعجزة لداوود ... خاصة أنه قال « وألنـّا له » له هو ... لداوود خاصة ...

ولكن ما الذي يمنع أن يمتد المعنى ... إلى ما يناسب عظمة داوود الملك المتربع على عرش دولة عظيمة ... لها أعداء كثيرون ؟!.

ما الذي يمنع أن يكون إلانة الحديد ... بمعنى أرشدناه وعلمناه اقامة صناعة الصلب والحديد ...

لأن هذه الصناعة هي أساس اعتماد الدولة على نفسها في لوازم قواتها المسلحة من أدوات للحرب ... وملابس حربية ؟!.

ووجدت قوله تعالى: « **وعلمناه صَنعة لبُوسٍ لكم لتحصنكم من بأسكم** »... وجدته يؤيد ما ذهبت اليه ...

وعلمنا داوود صنعة لبوس ... صناعة ملابس الحرب وأدوات الحرب ... لتحصنكم من بأسكم ... لتمنعكم من بأس أعدائكم ...

والخطاب هنا الى الأمة كلها ... التي على رأسها الملك داود ...

ثم وجدت قوله تعالى: « **اعملوا آلَ داوود شُكراً** » ... يؤيد ذلك المعنى ...

أي ... ألنـّا الحديد لداوود خاصة معجزة له ...

ثم علمناه ... أرشدناه أن يؤسس صناعة الحديد والصلب في الدولة ... « **صنعة لبُوس لكم** » ... ويجعل وعياً جديداً في الشعب ... ويعلمه كيف يلين الحديد بالصهر في الأفران ... وكيف يشكل منه الدروع الواقيات ذوات السَرْد ... ذوات الحلق المتراكبات والمسامير التي تشدها الى بعضها البعض ...

وبذلك تتفوق الأمة على أعدائها ... حيث انها أصبحت تمتلك صناعة الحديد والصلب ... وتصنع بيدها ما يلزمها من تسليح قواتها المسلحة من عتاد وأدوات وملابس للحرب ... وبذلك تصبح متفوقة على أعدائها ...

وهذا يؤيد وصف داوود «**واذكر عبدنا داوود ذا الأيْدِ**» ... **ذا القوة**... صاحب القوة في ملكه ودولته ... « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** » ...

هذا ما فهمته من مجموع الآيات الكريمات ...

وقد ذهب اليه بعض المفسرين ... حيث قالوا أنه أول من صنع الدروع الحديدية ...

انها صناعة الحديد والصلب ... انها مصانع الأسلحة وأدوات الحرب ...

التي هي أساس القوة لأي دولة ... تريد أن تقرر وجودها الدولي ... وتتفوق على أعدائها ...

فبالنسبة إلى داوود نفسه « وألنّا له الحديد » ... كان ذلك معجزة ...

ثم بالنسبة إلى الشعب كله ... « وألنّا له الحـــديد » ... يكون بإقامة مصانع الحديد ... وصهره وإلانته بالصهر ... ثم تشكيل أدوات الحرب وأسلحته منه بعد ذلك ...

وعلى ذلـــك يكون قوله تعالى : « **اعملوا آلَ داوودَ** » أمر من الله إلى الشعب كله ... أن يؤسس مصانع الحديد ... مصانع الأسلحة ... لأنها أساس القوة لكل أمة تريد أن تكون مرهوبة من أعدائها...

« **شُكراً** » واشكروا لي ولا تكفرون ... أي اجعلوا هذه الصناعات ... وهذه الأسلحة في سبيلي وإعلاء لكلمتي ... وهذا هو الشكر في حقيقته ...

ان تستعمل النعمة ... فيما يُرضي المنعم ...

وهو يطابق قوله تعالى في آية أخرى : « **فهل أنتم شاكرون** » !..

فهل أنتم مستعملون لهذه الأسلحة ... وتلك القوة في إعلاء الحق ... أم ستدفعكم إلى البغي والعدوان ؟!.

يا . . . جبال . . . أوبي . . .

كل ...

ما مضى من حياة داوود ... في هـــذا الكتاب شيء ... وهذا الأمر شيء آخر !..

ذلك ان داوود الظاهر للناس ... شيء يفهمه الناس ...

أما داوود الباطن ... فشيء لا يفهمه الناس !..

وهذا هو العجب العجاب من ذلك الأمر الذي ندخل اليه ...

داوود ... الغلام البطل ... قاتل جالوت ... شيء مفهوم ...

داوود ... المَلك ... المنتصر في معاركه كلهـــا ... قاهر أعدائه ... شيء مفهوم ...

داوود ... الملك ... الصائم ... القائم ... الذي يأكل من عمل يده ... ولا يفر إذا لاقى ... أخلاق رفيعة ... يمكن للناس فهمها ...

أما هذه ... فلا سبيل الى فهمها !..

أما قوله تعالى :

« ولقد آتينا داوودَ مِنّا فضلاً .

« يا جبالُ أوّبي معهُ .

« والطيرَ ... » ؟!.

ما هذا ... كيف هذا ؟!.

أما قوله تعالى :

« **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيْدِ إنه أوابٌ .**

« **إنا سخّرنا الجبالَ معهُ يُسبحن بالعشيّ والاشراقِ .**

« **والطيرَ محشورةً كلٌّ لهُ أوّابٌ » .**

ما هذا ... كيف هذا ؟..

ما سر ذلك ... وما سلطان داوود على الجبــال والطير ... وما علاقته بهؤلاء ... هل هم من الناس فيمتد ملكه اليهم ؟..

انه داوود ... الباطن ...

ومُلك داوود الظاهر ... على مملكته والنــاس ... والذي يركز عليه الناس ... رغم عظمته وضخامته وفخامتة ... يُعتبر ذرّة من بحر مُلك داوود الباطن ...

ذلك أن مُلك الدنيا محدود ... والملك الباطن لا محدود ...

مُلك الدنيا ... على قطعة من الكرة الأرضية ...

أما هذا المُلك الباطن ... فممتد على مستوى الكون ...

لا تعجب ... ولا تسارع الى الافتتان والتكذيب ...

فسوف ترى بعينيك ... وتسمع بأذنيك ...

ومن البداية ... ثبت فؤادك ... ورتل هذه ترتيلا ...

« **ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ عِلماً .**

« **وقالا الحمدُ لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » !..**

ثم رتل ... لتزداد تثبيتاً ...

« **وورث سليمان داوودَ وقال يا أيها الناس عُلـّمنا منطق الطيرِ .**

« وأوتينا من كل شيء »

« إن هذا لهو الفضل المبين » !..

لا تتزلزل ... فنحن أمام القدرة ...

والقدرة الإلهية ... لا يدركها الخلق ...

« وما قدروا الله حق قدره » !..

ونحن أمام الفضل الإلهي ...

وفضل الله ... لا تدركه العقول ...

ثم نحن أمام داوود ... قطب زمانه كله ...

أعلى فرد في البشر في زمانه ...

نحن أمام مجلى الفضل الإلهي ...

وكذلكم الله ... إذا تفضل ...

لا تقل كيف ... ولماذا ... فتلك وساوس النفوس ...

ولكن قل : يؤت الفضل من يشاء ... والله ذو الفضل العظيم ...

وللقائل أن يقول : ان صاحبنا يلجأ إلى الخيال ... نريد أن نعرف سر هذا الأمر ولا حاجة بنا الى كثرة المقال .

نعم ... ولندخل الآن الى البحر ... بحر داوود ...

الى أمواجه ... أمواج داوود ...

« ولقد آتينا داوود منا فضلا » آتيناه زيادة عن المعهود في الملوك ...

فالملوك يحكمون في الظاهر ... يحكمون في الناس ...

ولكن داوود ... زدناه ... فضلا ... منا ...

« وآتاه الله المُلك » الملك الظاهر ... المعهود ... سخرنا له الأمة كلها ... فأطاعته ... وصار عليها ملكاً ... يأمر وينهي ...

ولكن داوود ... لا يقف عند ما ينتهي اليه الملوك ... لماذا ؟.

« يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض » والخليفة هو الذي يحكم في الظاهر كما يحكم الملوك ... ويحكم في الباطن وهذا ما لا سبيل للملوك اليه !

ومن هنا صدر الأمر :

« يا جبالُ أوّبي » يا جبال الأرض ... يا كُل الأرض ... لأن الجبال اشارة إلى اليابسة كلها ... لأن الأرض كلها جبال ... كلها مادة ترتفع وتنخفض على تقدير ...

« أوّبي » رجّعي ... ردّدي ... سبّحي ... غرّدي ... غنّي ... انشُدي ... زفزفي ... تموجي ...

« معَهُ » مع داوود ... مع الخليفة الحاكم عليك ...

وهذا يقتضي تسخيرها لداوود ... كي تطيعه ولا تعصى له أمراً ...

« إنّا سخّرنا الجبال مَعَهُ » فالجبال مسخرات بأمر الله ... ولله أن يسخرها لمن شاء من عباده ...

ما حدود هذا التسخير ... وهل هو تسخير مطلق ... يفعل بها داوود ما يشاء ؟!. فإذا قال لها زولي ... تزول ؟!.

كلا ... حدود التسخير ها هنا في مجال « أوّبي » ...

في مجال « يسبحن بالعشيّ والاشراق » ...

في مجال التسبيح !..

ولا سلطان له عليها ... فيما وراء ذلك !..

جمال عجيب عجيب ...

ومن هنا « **آتينا داوود زبورا** » ... آتيناه أعلى أناشيد الثناء علينـــا في زمانه ... لأنه قطب زمانه ...

ثم ضممنا موجة الجبال إلى موجته ... لينشد داوود أناشيده ... وتنشد الجبال من ورائه ...

ويتحول الكون كله ... إلى أغرودة واحدة ... تسبحنا وتؤوّب لنا !..

واسمع ما يؤيد ذلك من مزامير داوود !..

« سبحوه يا جميع ملائكته .

« سبحوه يا كُلّ جنوده .

« سبحيه يا أيتها الشمس والقمر .

« سبحيه يا جميع كواكب النور .

« سبحيه يا سماء السماوات ويا أيتها المياه التي فوق السماوات » !..

انه يهتف بجميع ملائكته ... في الكون كله ...

انه ينادي جميع جنوده ... وما يعلم جنود ربك إلا هو ...

انه ينادي الشمس والقمر ...

انه ينادي جميع كواكب النور ... أي الشموس المضيئة ...

انه ينادي سماء السماوات ... والمياه التي فوق السماوات ...

يناديها جميعاً ... ليسبحوا ربهم ...

وهذا يكشف لنا ... آفاق « **يا جبال أوّبي معه** » ...

وآفاق ... « **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشيّ والاشراق** » ...

وما الشمس وما القمر وما الكواكب إلا جبال ... كُتل مادية متفاوتة الأحجام !..

فداوود حين هتف بهؤلاء جميعاً ... انما يهتف بمملكته الباطنة التي استخلفه الله فيها ... وأذن له أن تسبح معه ... وأن يقودها ... في موجة واحدة ... من التسبيح والتمجيد والتهليل لربها !..

فهل انتهت مملكة داوود الباطنة عند حد تسخير الجبال معه يُسبحن ... أم امتدت إلى مراتب أخرى ؟..

« **والطيرَ** » انا سخرنا له الطير ... جميع أنواع الطير والحيوان وما دون ذلك من الكائنات ... كلها مسخرة لداوود في دائرة التسبيح !..

« **والطيرَ محشورةً** » مجموعة له ... في موجة واحدة ... في موجة تسبيحية واحدة ...

وليس معنى « محشورة » كما ذهب بعض المفسرين ... أي تجتمع عليه تستمع لصوته الجميل وهو يؤوب لربه ... كلا ان الطيور كما هي في مواطنها من الكرة الأرضية ...

ولكنها « محشورة » كلها في موجة واحدة ... وإن تفرقت أبدانها ...

وهو ما يعبر عنه في لغة اللاسلكي ... بضم الموجات ...

وداوود يؤوب ... انه أواب ... وهي تؤوب من ورائه تأويباً ...

سيمفونية واحدة ... يقودها داوود ...

واسمع إلى ما يؤيد ذلك من مزامير داوود :

« **سبحي الرب من الأرض يا أيتها التنانين وكل اللُّجج .**

« **النار والبَرَد والثلج والضباب الريح العاصفة الصانعة كلمته .**

« **الجبال وكل الآكام الشجر المثمر وكل الأرز .**

« **الوحوش وكل البهائم الدبابات والطيور ذوات الأجنحة » !..**

وهذا من تفسير قوله تعـــالى « **والطير محشورة كل له أواب** » محشورة في أماكنها من الأرض ... وكل منها له أي لداوود أواب ... يؤوب ويسبح ويغني لنا وراء تسبيح داوود وترجيعه وتأويبه ...

وها هنا نص على الطير ... وفي موطن آخر نص على ما سواها من المراتب من حيوان البر والبحر ودوابها .

« **وورث سليمان داوود** » في كل ما آتاه الله ظاهراً وباطناً ...

« **وقال يا أيها الناس عُلّمنا منطق الطير** » جميع الطيور بأنواعها ولغاتها ...

« **واوتينا من كل شيء** » ومنهـــا الحيوان والأسماك والأشجار والمياه والسحاب ...

تماماً كما هتف داوود في مزاميره بهؤلاء جميعاً ... أن يسبحوا ربهم ...

وما كان هتاف داوود ونداؤه لهؤلاء جميعاً أن يسبحوا بمجرد نزعة صوفية لتمجيد الله ...

كلا ... بل كلهن مسخرات له ... يأتمرن بأمره ... في مجال التسبيح ...

فهو ينادي قوماً تحت أمره ... فحين يقول لشيء منها « سبحي » أي آمرك أن تسبحي ... وهي بدورها تسرع إلى تنفيذ الأمر وتنطلق تسبح وتسبح !..

ثم ماذا ؟..

ثم هل قلنا شيئاً ...

ما قلنا شيئاً ... حتى الآن ... اننا ما زلنا نقف على شاطىء البحر وقد بهرتنا أمواجه ...

أما البحر نفسه ... فلم نَسبح فيه بعد ...

والآن تحددت القضية الخطيرة بعض الشيء ... فعلمنا أن الجبال والطير ... وهما رمزان للمادة والكائنات الحية ... الجبـــال رمز للأرض والكواكب

والشموس والبحار والماء والسحاب وكل الماديات ... ومرتبة الجماد ...

والطير ... رمز للكائنات الحية فوق الأرض بعد مرتبة الجماد ... كالطيور والزواحف والأسماك والحيوانات وغيرها ...

كل هؤلاء مسخرات لداوود ...

ولكن في دائرة واحـــدة ... هي دائرة التسبيح « **معه ... يُسبحن** » فقط ... معه في هذا المجال فقط ...

أما النواميس الأخرى ... الحاكمة على هذه الكائنات جميعاً ... المسخرة لها الى تقديرها ... فلا سلطان لداوود عليها ... لأن التدخل في هذه النواميس قد يؤدي الى تخلخل في انتظامها العام ...

هذا وجه ... ووجه آخر ... ما هو هذا التسبيح ؟!.

أم الكتاب ... أو ناموس النواميس ... هو قوله تعالى :

« وإن من شيء إلا يُسبّح بحمده .

« ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ...

فالناموس العـــام ... الذي ينتظم كل شيء ... من أصغر شيء إلى أكبر شيء ... أو يكون ... انه يسبح بحمد ربه ...

هذا هو الناموس العام ...

ومن ورائه ناموس عام آخر ... هو : « **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** » كل مرتبة محجوبة عن غيرها من المراتب في تسبيحها ... فلا تفقه شيئاً من تسابيح غيرها من المراتب ...

فالناس يسبحون ... والحيوانات تسبح ... ولكن لا النـــاس يفقهون تسبيح الحيوانات ... ولا الحيوانات تفقه تسبيح الناس ...

والشجر يسبح بحمد ربه ... والطير يسبح بحمد ربه ...

ولكن لا الشجر يفقه تسبيح الطير ... ولا الطير يفقه تسبيح الشجر ...

بل أبعد من ذلك ... ان الكائنات كلها ... لكل مرتبة منها صلاة !..

صلاة ذات طقوس وحركات وهذه أعجب وأعجب !..

« والنجمُ والشجرُ يسجدان » !..

النجوم لها سجود وصلاة ...

والشجر له سجود وصلاة ...

ولكن لا النجم يفقه صلاة الشجر ... ولا الشجر يفقه صلاة النجوم ...

وأخرى أبهج وأعجب !..

وتقرر أن لكل شيء تسبيحاً ... ولكل شيء صلاة ... غير التسبيح العام !..

اسمــــع :

« ألم تر أن الله يُسبح له مَن في السماوات والأرض .

« والطيرُ صافاتٍ .

« كلٌ قد علم صلاته وتسبيحهُ والله عليم بما يفعلونَ » !..

ما رأيك الآن ؟!.

« كــلٌ » ؟!.

كل شيء ...

« قد علم صلاته » له صلاة ...

« وتسبيحه » وله تسبيح عام لربه ... غير الصلاة !..

« والله عليم بما يفعلون » هو وحده الذي يعلم صلاة كل شيء... وتسبيحه...

أما أنتم فالقانون العام ... « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » !..

المراتب إذاً محجوبة بعضها عن بعض ...

كل مرتبة تئز وتموج إلى ربها ... ولكن لا تفقه عن تسبيح غيرها شيئاً !..

لماذا هذا الحجاب ؟!.

لمصلحة حياة المراتب ...

فلو رُفع الحجاب فيما بين المراتب ... لا يطيق أصحابها ما يشهدون !..

فالحجاب رحمة ... عازل بينك وبين ما لا تحتاج اليه ...

وأقاصيص العارفين ... الذين كُشف عنهم بعض الحجاب ... ورأوا وسمعوا تسبيح البحار والأسماك والجبال والأشجار ... فلم يطيقوا ذلك ودعوا الله أن يردهم إلى الحجاب رحمة بهم ...

أقول ... الأقاصيص في ذلك كثير !..

فماذا حدث هنا ... في أمر داوود عليه السلام ...

« **ولقد آتينا داوود منا فضلاً** .

« **يا جبال أوِّبي معه** » ...

لعل الذي حدث أن ناموس « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ... رُفع بالنسبة إلى داوود ... وهذا فضل خاص به « **منّا فضلاً** » !..

فسمع داوود ... تسبيح الملائكة ... وتسبيح الكواكب ... وتسبيح الأشجار والبحار ... وتسبيح الطير والحيوان والجراثيم ... وتسبيح كل شيء من حوله ...

ولكن مجرد السماع ... لا يفيد إدراك ما يَسمع ولا دلالته ...

وها هنا يأتي فضل آخر « **ولقد آتينا داوود وسليمان عِلماً** » ...

فعلم داوود ... ماذا تقول تلك المراتب كلهـــا في تسبيحها ... وكيف تسبح ... وكيف تصلي ؟!..

ولكن السماع ... وفَهْم ما يقولون ... لا يكفيان ... فلا بد من الرؤية والمشاهدة ... فيشهد هذه الكائنات شهوداً ... وهذا ما كان :

« وأوتينا من كل شيء » ...

ولكن كيف يمكن لداوود ... وهو آدمي تحكمه محدودية الآدمية ...

كيف يَتسع سمعه هذه الأصوات جميعاً ...

وكيف يميز بينها جميعاً ...

وكيف يفهمها جميعاً ...

وكيف يشهدها جميعاً ...

ثم كيف يستطيع أن يأمرها جميعاً ... لتسبح ربها كلها ...

وتنتظم في موجة واحدة ...

وهو على رأسها ...

وينشدون نشيداً واحداً ... لربهم الواحد ؟..

لعل ذلك كان كذلك ...

حين تجلى الله ... على داوود ... باسمه السميع ...

هنالك سمع داوود ... ما شاء الله له أن يسمع ... بالله ...

وحين تجلى الله ... على داوود ... باسمه البصير ...

هنالك ... رأى داوود ما شاء الله له أن يرى ... بالله ...

وحين تجلى الله ... على داوود ... باسمه العليم ...

هنالك ... عـــلم داوود ما شاء الله له أن يعلم ... بالله ... « ولقد آتينا داوود وسليمان علماً » ...

انه موجة ...

« ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل .

« حتى أحبه .

« فاذا أحببته .

« كنت سمعه الذي يسمع به .

« وبصره الذي يبصر به » ...

هنالك نادى داوود ... أولئك جميعاً ... أن يسبحوا ...

فسبحوا جميعاً ...

وفَـهِـم داوود عنهم ...

وفهموا عنه ... رُفعت الحجب ... بين المراتب ...

وخاطبوه ... وخاطبهم ...

وشهد الكون ... قطب زمانه ...

يقود المراتب ... تسبيحاً ... وتعظيماً ... وثناء ...

والمراتب كلها ... تُرَجـِّـع من ورائه ... وتؤوّب ...

« كـُلٌ ... لهُ ... أوّابٌ » ...

ذلكم ... داوود ... الباطن ...

فأين داوود ... الظاهر ...

أين داوود ... المَلك ...

من داوود ... الباطن ؟..

انها النبوة ... لو فُتح لنا منها بمقدار خرم إبرة ... لاحترقنا ...

هل قلنا شيئاً ؟..

انها مجرد ظنون ... والله أعلم ...

أما : كيف كان هذا ؟

فاخسأ ... ولا تقل كيف ؟.

فالله ... هو الذي تجلى ...

وعبده داوود ... هو الذي سمع ... ورأى ... وعلم ...

أما نحن ... فنُسَلِّم تسليماً ...

كل هذه العجائب ... من داوود ... الباطن ...

لا يلتفت اليها كثير من الناس ...

لأن الناس مفتونون ... مبهورون ... بداوود الظاهر ... المَلِك ...

أما هذا الوجه ... الذي هو البحر اللُّجّي ... من شخصية داوود ...

فإنهم لا يعلمون عنه شيئاً ...

لأنه ... « مِنـّا فضلا » ...

سرّاً ... منـّا ... إلى عبدنا داوود ...

يسمع داوود ما يسمع ...

ويرى ما يرى ...

ويفهم ما يفهم من لغات الكائنات ... ويخاطبها وتخاطبه ...

ويأمرها ... وتطيعه ...

ويغرد ... وتغرد معه ...

كل هذا الضجيج والعجيج ... والأمواج الزاخرة الصاخبة ...

ولا يسمع الناس منها شيئاً ... ولا يبصرون ... ولا يعلمون منها شيئاً ...

لأنها تجري ... سرّاً بين الرب ... وعَبْده ...

اختصه الله به ... وتفضل عليه به ...

فلا سبيل للناس ... إلى مزاحمته فيه ...

وهكذا شأن النعم الباطنة ... هي سر مكنون بين الله ... وعبده !..

هي جنّة خاصة ... بصاحبها ... لا يدخلها أحد سواه !..

كلٌّ ... لهُ ... أوّابٌ ...؟!

فرغنا ...

من محاولة فَهم ... كيف كُشف الغطاء عن داوود ...

فسمع بالله ... ورأى بالله ... وعَلم بالله ... تسبيح الكائنات ... والجمادات ... والطير ... والحيوان ...

وفَهم ما يقولون ... وخاطبها ... وأمرها ... أن سبّحي ... فسبحت ... وأطاعت له أمراً !..

بقي هناك وجه آخر ... أخطر وأعقد ... وأشد غرابة ...

هذا داوود ... قد سمع وشهد وفَهم لغات الكائنات وخاطبها ...

ولكن الوجه الآخر ... والأعجب ... كيف فهمت هي عن داوود ...

وأدركت عنه ... وسبحت بتسبيحه ... وعظمت بتعظيمه ... وأثنت على ربها بثنائه ... ولغة داوود غير لغتها ؟!.

كما أن الكائنات لا تُحصى عدداً ... ولا تتناها اختلافاً ... فكيف توحدت كلها في لغة واحدة ... لتردد خلف داوود ... وترجع بترجيعه ؟!.

ها هنا نتأمل قوله تعالى :

« كُلٌّ لهُ أوابٌ » ....

فنجد أنفسنا أمام بحر عميق ... يموج بموج كالجبال ...

كل الكائنات المسخرة لداوود ... تؤوب معه ... وتؤوب له ...

يسبح داوود ... فتسبح الجبال والطير معه ...

وينشد ... وينشدون وراءه ...

ويُرَجِّع ... ويُرَجِّعون ما يقول ...

تُرى هل رُفع الحجاب عن الكائنات ... ففهمت ما يقول داوود ... وما يريده منها ؟!.

إن شيئاً من هذا نجد الإشارة اليه في قوله تعالى عند قصة الهدهد مع سليمان ...

ومعلوم ان حقيقة سليمان ... هي حقيقة داوود ... حيث ورث سليمان داوود ... ثم زاده ما شاء ...

« فمكث غير بعيد فقال :

« أحطت بما لم تحط به .

« وجئتك من سبأ بنبأ يقين » .

الهدهد هنا يخاطب سليمان ... ويفهم أنه يبحث عنه ... فجاء يدافع عن نفسه !..

وسليمان من جهة أخرى ... يفهم ما يقول الهدهد ... ويقول له فيما قال :
« سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » !.

حوار بين سليمان وبين الهدهد ...

هذا يفهم ذاك ... وذاك يفهم هذا ؟!.

بل أعجب من ذلك ... كائن صغير ... نملة ... تتحدث إلى النمل ... وسليمان يتبسم ضاحكاً من قولها !..

فهل رُفع الحجاب ... عن الهدهد... وعن النملة... ففهمت عن سليمان...
ما يقول ... كما رُفع الحجاب عن سليمان ففَهم عنها ما تقول ؟!

الحق ... أن الأسلم ها هنا ... هو التسليم ...

فالكائنات ... جميعهن ... عبادٌ لله وهو أعلم بهم ...

وهذه أسرار ... ولا يُتكلم فيها بالرأي ...

ولكن يكفي أن نعلم أن هذه الكائنات سخرها الله لداوود ... وأمرها أن تسبح معه ... ولهُ ...

وأنه يفهم لسانها ... ويعلم كلامها ...

وهي تفهم لغته ... وتعلم ما يريد منها ...

وأنهم جميعاً ... هو ... وهي ... يسبحون ويؤوبون ويرجعون ...

وأن الأمر معجزة ... والمعجزات خوارق ... لا يأتي بها إلا الله ... ولا تستطيع العقول إدراكها ... لأنها صادرة عن القدرة ... والقدرة لا يعجزها شيء ...

ثم ماذا ؟!.

ثم قوله تعالى «كُلٌّ لهُ أوّابٌ».

لهُ ؟!.

لمن ؟!. لله ... أم لداوود ؟!.

هذا من ذاك ... وذاك من هذا !..

كلٌّ ... لله ... أوّاب ...

على مستوى الوجود كله ...

كل شيء ... لله ... أوّاب ...

نفس ناموس « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » !..

والأخرى ... وهي أقرب إلى العقول ...

كلّ ... من الطير والجبال ... لداود ... أوّاب ...

وهذا لا ينفي ذاك ...

وهذا من إعجاز ذلك الكتاب ... لا ريب فيه !..

حقيقة داوود ... كما يراها ...

ابن العربي ...؟!

انـــه ...

الإمام الأكبر ...

والكبريت الأحمر ...

كما يسميه ... العارفون ؟..

انه ابن العربي ...

قال في كتابه الخالد ... العديم النظير ... [**فصوص الحِكَم**] ...

قال في كتابه ذاك ... فصل [**فص حكمة وجودية في كلمة داوودية**] ...

ونثبت هنـــا ما قاله الشيخ الأكبر بالبسط العريض ... تمييزاً عما قاله القاشاني ... شرحاً على أقوال ابن العربي ...

وكلمات ابن العربي هنا ... تعتبر من نفائس ما كتب عن الأنبياء ...

من أجل ذلك أثبتناها ... كما هي ...

على أن يوضع في الاعتبار عند قراءتها ... أو قراءة الشرح ... ان ذلك مذهب الشيخ الأكبر ... ومذهب الشارح ... وهو غير ملزم لأحد ... وإنما هو أفق أعلى ...

يشعشع أمامنا ... أمواجاً عاليـــة ... في فهم شخصية داوود ... وإدراك عجائبها !..

[فص حكمة وجودية في كلمة داوودية]

« إنما خصت الكلمة الداوودية بالحكمة الوجودية .

« لأن الوجود إنما تم بالخلافة الإلهية في الصورة الإنسانية .

« وأول من ظهر فيه الخلافة في هذا النوع كان آدم .

« وأول من كمل فيه الخلافة بالتسخير داود حيث سخر الله له الجبال والطير في ترجيع التسبيح معه كما قال (– إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب – وجمع الله به فيه بين الملك والخطاب والنبوة في قوله – وشددنا مُلكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب .

« وخاطبه بالاستخلاف ظاهراً صريحاً هو داود عليه السلام .

« ولما كان التصرف في الملك بالتسخير أمراً عظيماً لم يتم عليه بانفراده ، وهبه سليمان وشركه في ذلك لقوله – ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا – الآية .

« وقال – ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً –) .

« فكان تتمة لكماله في الخلافة بما خصصه الله به من كمال التصرف في العموم فبلغ الوجود بوجود كماله في الظهور .

« وهذا هو السر في اقتران الحكمة الداودية بالحكمة السليمانية .

« وتقديم السليمانية على الداودية للمزية الظاهرة له بخصوصية ، فكأنها حكمة واحدة فيما يرجع إلى ظهور كمال الوجود .

« وحكمتان في ظهور الرحمانية في الفرع ، إذ كل فرع فيه ما في الأصل وزيادة تخصه ، فقدم للزيادة وللتنبيه على أنها حكمتان متميزتان بتقديم الآخر على الأول كما فعل الله بقصة البقرة » .

[اعلم انه لما كانت النبوة والرسالة اختصاصاً إلهياً ، ليس فيها شيء من الاكتساب، أعني نبوة التشريع ، كانت عطاياه تعالى لهم عليهم الصلاة والسلام من هذا القبيل ، مواهب ليست جزاء ، ولا يطلب عليها منهم جزاء .

« فاعطاؤه إياهم على طريق الانعام والأفضال .

« فقال – ووهبنا له اسحاق ويعقوب – يعني لابراهيم الخليل .

« وقال في أيوب – ووهبنا له أهله ومثلهم معهم –

« وقال في حق موسى – ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيـــاً – إلى مثل ذلك .

« فالذي تولاهم أولا هو الذي تولاهم آخراً، في عموم أحوالهم أو أكثرها.

« وليس إلا اسمه الوهاب .

« وقال في حق داود – ولقد آتينا داود منا فضلاً – فلم يقرن به جزاء يطلب منه ، ولا أخبر أنه أعطاه هذا الذي ذكره جزاء .

« ولما طلب الشكر على ذلك بالعمل طلبه من آل داود ، ولم يتعرض لذكر داود ليشكره الآل على ما أنعم به على داود] .

* * *

قال القاشاني :

« اعلم انه لمـا كان أصل الوجود الفائض على الأشياء من محض الجود ، كان كماله الذي هو الخلافة الإلهية أيضاً من محض الجود .

« فكانت للنبوة والرسالة التي لا بد للخلافة الإلهية منهما ، مع التصرف في الملك بالتسخير اختصاصاً إلهياً من حضرة اسم الجواد الوهاب .

« ليس للكسب والعمل فيه مدخل لا أولاً بأن يكون جزاء لعمل منهم ،

ولا آخراً بأن يطلب منهم شكراً وثناءً ، ويكون قضاء لحق النعمة عليهم ، كما ذكر في الآيات المذكوره .

« وإنما خصص النبوة بالتشريع احترازاً عن نبوة الإنباء العام من البحث في معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وآثاره ، وعن علم الوراثة في قوله : « العلماء ورثة الأنبياء » وقوله : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

« فإن تحصيل علـــوم النبوة بالكسب وبالعمل الذي يثمره في قوله عليه الصلاة والسلام « من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم » نوع النبوة الكسبية .

« فالذي تولاهم أولاً بأن أعطاهم تفضلاً من غير عمل منهم ، تولاهم آخراً بأن يحفظ عليهم تلك النعمة في جميع الأحوال أو أكثرها ، ويزيدها ولا يطلب منهم شكرها ، مع أنهم لا يخلون بالقيام عن شكرها .

« لأن نشأتهم النبوية تعطيهم القيام بحقوق العبدانية على أكمل الوجوه .

« كما قال عليه الصلاة والسلام : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

« ولهذا ذكر أنه أتى داود شكراً فضلاً ، ولم يذكر أنه أعطاه ما أعطاه جزاء لعمله ، ولم يطلب منه جزاء على ذلك الفضل .

« وإنما طلب الشكر بالعمل من آل داود على النعمة التي أنعم بها عليهم وعلى آل داود ، ولأن النعمة على الأسلاف نعمة على الأخلاف » .

* * *

ثم يقول الامام الأكبر ، ابن العربي :

[فهو في حق داود عطاء نعمة وإفضال ، وفي حق آله على غير ذلك لطالب المعاوضة ، فقال الله تعالى – اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور –

« وإن كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد شكروا الله تعـــالى على ما أنعم به عليهم ووهبهم ، فلم يكن ذلك عن طلب من الله ، بل تبرعوا بذلك من نفوسهم .

« كما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه شكراً لما غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

« فلما قيل له في ذلك قال « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

« وقال في نوح -- إنه كان عبداً شكوراً --

« فالشكور من عباد الله قليل .

« فاول نعمة أنعم الله بها على داود ان أعطاه اسماً ليس فيه حرف من حروف الاتصال ، فقطعه عن العالم بذلك إخباراً لنا عنه بمجرد هذا الاسم ، وهي الدال والألف والواو] .

قال القاشاني :

« أي أخبره كشفاً أنه قطعه عن العالم من حيث كونه غيراً وسوى .

« وأخبرنا إيماءً ورمزاً بهذا الاسم بظهور معنى القطع فيه ، فإن الألقاب تنزل من السماء » .

* * *

ثم يقول الامام الأكبر :

[وسمى محمداً صلى الله عليه وسلم بحروف الاتصال والانفصال ، فوصله به ، وفصله عن العالم .

« فجمع له بين الحالتين في اسمه ، كما جمع لداود بين الحالين من طريق المعنى] .

قال القاشاني :

« وهو اختصاصه بالجمع بين النبوة والرسالة والخلافة والملك والعلم والحكمة والفصل ، بلا واسطة غيره » .

* * *

ثم قال الامام ابن العربي :

[ولم يجعل ذلـــك في اسمه فكان ذلك اختصاصاً لمحمد على داود عليهم الصلاة والسلام .

« أعني التنبيه عليه باسمه ، فتم له الأمر عليه السلام من جميع جهاته .

« وكذلك في اسمه أحمد ، فهذا من حكمة الله] .

قال القاشاني :

« أي اختصاصهما بالاسمـــين الدالين بحروفهما على ما ذكر من المعنيين فيهما من حكمة الله التي في تسميتهما ، لمن عقل عن الله ، ولم يعقل شيئاً من الأشياء ، إلا شاهد حكمة الله المودعة فيه » .

* * *

ثم يقول الامام الأكبر :

[ثم قال في حق داود فيما أعطاه على طريق الانعام عليه ترجيع الجبال معه التسبيح ، فتسبح بتسبيحه ، ليكون له عملها .

« وكذلك الطير] .

قال القاشاني :

« في الإنعام عليه بترجيع الجبال والطير معه التسبيح ، إيماء إلى حكمة ترجيعهما ، بكون عملهما له .

« وهي أن الجبال تحكي بصورها رسوب الأعضاء والتمكن والثبات ، التي هي مخصوصة بالكُمل في ظواهرهم .

« والطير تحكي بطيرانها حركة القوى الروحانية فيه ، وفي كل عبد كامل إلى تحصيل مطالبها ، عند تسبيح الكامل ، بما يخصه من تنزيه الله عن النقص ، وبراءته عن صفات الإمكان وأحكامه ، والاتصاف بصفات الوجود وأحكامه .

« ولما كان داود من كمال توجهه وتجرده وانقطاعه إلى الله بالمحبة الذاتية .

« والهيمان ، والعشق ، وإيثار جنابه على نفسه ، وما يتعلق به .

« تبعته ظواهره وبواطنه وجوارحه .

« وقواه كلها .

« أظهر الله تعالى سر انخراط أعضائه وقواه الروحانية ، في التنزيه والتقديس ، في صور الجبال والطير ، متمثلة له .

« فرجعت معه التسبيح .

« لأن الغالب في زمانه تجلي الاسم الظاهر على الباطن ، لما بقي من حكم الدعوة الموسوية إلى الاسم الظاهر .

« فكانت الحقائق والمعاني مظهر صور قائمة لهم ، لما أهله وخصه به من كمال ظهور الوجود » .

* * *

ثم قال الامام :

[وأعطاه القوة ونعته بها] .

قال القاشاني :

« في قوله – واذكر عبدنا داود ذا الأيد – أي القوة » .

* * *

ثم يقول الامام :

[وأعطاه الحكمة] .

قال القاشاني :

« أي سياسة الخلق ، وتدبير الملك ، بوضع الأشياء مواضعها .

« وتوجيه الأكوان إلى غاياتها ، بالتأكيد الإلهي ، والأمر الشرعي » .

* * *

ثم يقول :

[– وفصل الخطاب –] .

قال الشارح :

« أي الإفصاح عن حقائق الأمور على ما هي عليه .

« وفصل الأحكام ، وقطع القضايا ، باليقين من غـــير شك وارتياب ، ولا توقف فيها » .

* * *

ثم يقول الامام :

[ثم المنة الكبرى ، والمكانة الزلفى ، التي خصه الله بها ، التنصيص على خلافته .

« ولم يفعل ذلك مع أحد أبناء جنسه] .

وفي نسخة بأحد ، وهو أفصح من اتحادهما في المعنى .

« وإن كان فيهم خلفاء ، فقال – يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى –

« أي ما يخطر لك في حكمك من غير وحي مني – فيضلك عن سبيل الله – أي عن الطريق الذي أوحي به إلى رسلي .

« ثم تلطف سبحانه معه فقال – إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب –

« ولم يقل له : فان ضللت عن سبيلي فلك عذاب شديد .

« فان قلت : فآدم قد نص على خلافته ،

« قلنا : ما نص مثل التنصيص على داود .

« وإنما قال للملائكة – إني جاعل في الأرض خليفة – ولم يقل إني جاعل آدم خليفة .

« ولو قال أيضاً ، لم يكن مثل قوله - إنا جعلناك خليفة – في حق داود .

« فان هذا محقق ، وذلك ليس كذلك .

« وما يدل ذكر آدم في القصة بعد ذلك على أنه عين ذلـــك الخليفة الذي نص الله عليه .

« فاجعل بالك لاخبارات الحق عن عباده إذا أخبر .

« وكذلك في حق إبراهيم الخليل عليه السلام – إني جاعلك للناس إماماً – ولم يقل خليفة .

« وإن كنا نعلم أن الامامة ههنا خلافة .

« ولكن ما هي مثلها ، لأنه ما ذكرها بأخص أسمائها وهي الخلافة .

« ثم في داود عليه السلام من الاختصاص بالخلافة أن جعله خليفة حكم ، وليس ذلك إلا عن الله] .

قال القاشاني :

« أي لا تسند الحكم إلا الى حضرة الاسم الشامل كلها وهو الله – فإن الحكم لله .

« والإمامة بالنسبة إلى الخلافة ، كالولاية بالنسبة إلى النبوة .

« فكما أن الولي ، قد لا يكون نبياً ، كذلك الإمام قد لا يكون خليفة .

« والخليفة بمعنى من يخلف ، فلا يكون خليفة حتى يحكم الله على خلافته .

« وداود كان كذلك .

« قد أمره الله بالحكم » .

* * *

ثم يقول ابن العربي :

[فقال له – فاحكم بين الناس بالحق –

« وخلافة آدم قد لا تكون من هذه المرتبة ، فتكون خلافته أن يخلف من كان فيها قبل ذلك ، لا أنه نائب عن الله في خلقه ، بالحكم الالهي ، وإن كان الأمر كذلك وقع .

« ولكن ليس كلامنا إلا في التنصيص عليه والتصريح به .

« ولله في الأرض خلائف عن الله وهم الرسل .

« وأما الخلافة اليوم فعن الرسل لا عن الله .

« فانهم ما يحكمون إلا بما شرع لهم الرسول ، لا يخرجون عن ذلك .

« غير أن ها هنا دقيقة ، لا يعلمها إلا أمثالنا .

« وذلك في أخذ ما يحكمون به مما هو شرع للرسول عليه السلام] .

قال القاشاني :

« يعني خلفاء الرسول لهم الخلافة الظاهرة ، لا يخرجون عما شرع لهم .

« ومنهم من يأخذ الحكم الذي شرع الرسول عن الله .

« فهو خليفة الله باطناً ، يأخذ الحكم عنه .

« وخليفة الرسول ظاهراً بأن يكون حكمه المأخوذ من الله ، مطابقاً للحكم المشروع الذي ورثه من الرسول .

« فهو مأمور من قبل الله أن يحكم بحكمه ، الذي جاء به الرسول في خلقه » .

* * *

ثم يقول الامام :

[فالخليفة عن الرسول من يأخذ الحكم بالنقل عنه صلى الله عليه وسلم ، أو بالاجتهاد الذي أصله أيضاً منقول عنه عليه الصلاة والسلام .

« وفينا من يأخذه عن الله ، فيكون خليفة عن الله بعين ذلك الحكم ، فتكون المادة له من حيث كانت المادة لرسوله عليه الصلاة والسلام .

« أي مأخذ حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« فهو في الظاهر متبع ، لعدم مخالفته في الحكم .

« كعيسى عليه السلام ، إذا نزل فحكم .

« كالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في قوله « أولئك الذين هـــدى الله فبهداهم اقتده » .

« وهو في حق ما يعرفه من صورة الأخذ مختص موافق ، هو فيه بمنزلة ما قرره النبي عليه الصلاة والسلام ، من شرع من تقدم من الرسل .

« بكونه قرره فاتبعناه من حيث تقريره ، لا من حيث أنه شرع لغيره قبله .

« وكذلك أخذ الخليفة عن الله عين ما أخذه من الرسول عليه الصلاة والسلام] .

قال القاشاني :

« أي الخليفة من الوالي الآخذ الحكم عن الله ، متبع في الظاهر لعدم مخالفته في الحكم ، كعيسى حين ينزل فيحكم بما حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، فيما أمر باقتداء هدى الله ، الذي هدى به من قبله من الأنبياء .

« فإنه مختص بالحكم من الله باعتبار أخذه منه ، موافق لما كان قبله في صورة الحكم ، صورته صورة الاقتداء .

« وهو مأمور به على وجه الاختصاص من عند الله .

« فهذا الخليفة مختص لأنه أخذ الحكم عن الله ، لا عما أخذه علماء الرسوم بالنقل ، ومشارك لهم في ذلك الأخذ أيضاً فهو معهم » ...

* * *

ثم يقول :

[فنقول فيه بلسان الكشف خليفة الله .

« وبلسان الظاهر خليفة رسول الله .

« ولهذا مات رسول الله صلى عليه وسلم وما نص بخلافته عنه الى أحد ، ولا عينه .

« لعلمه أن في عباد الله من يأخذ الخلافة عن ربه ، فيكون خليفة عن الله ، مع الموافقة في الحكم المشروع .

« فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام لم يحجر الأمر .

« فلله خلفاء يأخذون من معدن الرسول والرسل ما أخذته الرسل عليهم السلام .

« ويعرفون فضل المتقدم هناك .

« لأن الرسول قابل المزيادة ، وهذا الخليفة ليس بقابل المزيادة ، التي لو كان الرسول قبلها فلا يعطى من العلم والحكم فيما شرع إلا ما شرع للرسول خاصة .

« فهو في الظاهر متبع غير مخالف ، بخلاف الرسول .

« ألا ترى عيسى عليه السلام لما تخيلت اليهود أنه لا يزيد على موسى مثل

ما قلنا في الخلافة اليوم مع الرسول آمنوا به وأقروه .

« فلما زاد حكماً ، ونسخ حكماً قد قرره موسى عليه السلام ، لكون عيسى رسولا ، لم يحتملوا ذلك لأنه خلاف اعتقادهم فيه .

« وجهلت اليهود الأمر على ما هو عليه فطلبت قتله .

« وكان من قصته ما أخبرنا الله في كتابه العزيز عنه وعنهم .

« فلما كان رسولا قبل الزيادة .

« إما بنقص حكم قد تقرر ، أو زيادة حكم .

« على أن النقص زيادة حكم بلا شك] .

« لأنه أخذ خلاف الأول ، كرفع القصاص مثلاً » .

* * *

ثم يقول الامام الأكبر :

[والخلافة اليوم ليس لها هذا المنصب .

« وإنما تنقص أو تزيد على الشرع ، الذي قد تقرر بالاجتهاد ، لا على الشرع الذي شرّفه به محمد صلى الله عليه وسلم] .

قال الشارح : أي خوطب به مشافهة ، ونص عليه له ، فإنه لا يجوز الاجتهاد في مثل هذا المشروع والمنصوص ، وإنما يجتهد فيما لم يثبت عند المجتهد بنص » .

* * *

ثم يقول :

[فقد يظهر من الخليفة ما يخالف حديثاً ما في الحكم فيتخيل أنه من الاجتهاد وليس كذلك .

« إنما هذا الامام لم يثبت عنده من جهة الكشف ذلك الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو ثبت لحكم به .

« وإن كان الطريق فيه العدل عن العدل ، فما هو معصوم عن الوهم] .

« أي : فما ذلك العدل معصوم الخطأ » .

* * *

ثم يقول :

[ولا من النقل على المعنى ، فمثل هذا يقع من الخليفة اليوم .

« وكذلك يقع من عيسى عليه السلام .

« فانه اذا نزل يرفع كثيراً من شرع الاجتهاد المقرر ، فيبين برفعه صورة الحق المشروع الذي كان عليه الصلاة والسلام .

« ولا سيما إذا تعارضت أحكام الأئمة في النازلة الواحدة ، فنعلم قطعاً أنه لو نزل وحي لنزل بأحد الوجوه ، فذلك هو الحكم الالهي ، وما عداه وإن قرره الحق فهو شرح تقرير لرفع الحرج عن هذه الأمة واتساع الحكم فيها] .

قال القاشاني :

« يعني أن الخلافة المتقررة عن النبوة التشريعية والرسالة المنقطعتين بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ليس لها هذا المنصب بتغيير الأحكام الاجتهادة .

« وأكثر الخلفاء اليوم ، خلفاء الرسول ، لا يأخذون عن الله الأحكام ، بل عن الرسول بالنقل .

« وقد يكون فيهم الخلفاء الأولياء الذين يأخذون الأحكام عن الله ، مع موافقة الرسول فيها .

« فإنهم يأخذون من الحق ما أخذه الرسول ، فلا يغير حكماً ، إلا أنه قد يظهر من أحدهم ما يخالف بعض الأحاديث في الحكم ، مع أن ذلك الحديث ثابت الإسناد في الظاهر ، نقله العدل عن العدل إلى رسول الله ، لكنه لو ثبت عنده بالكشف كونه عن النبي لحكم به ، فيحكم فيما يأخذ عن الله بخلافه ، ان أمر بذلك .

« فيتخيل الجاهل بحاله أنه إنما حكم بالاجتهاد على خلاف النص .

« وكذلك إن أمر بالسكوت عنه سكت .

« وإن أمر أن يبين أن الحديث ثابت ظاهراً من طريق النقل ، غير ثابت من طريق الكشف بيَّن .

« فإن العدل قد يخطىء ، وقد يحكم بما لم تثبت صحته بالنقل لثبوت صحته بالكشف .

« إما بالأخذ عن الله وتصحيح ذلك في الحضرة الإلهية .

« وإما باجتماع روحه بروح الرسول بعروجه اليه ، أو بنزول روح الرسول إلى مرتبته وبرزخه في عالم المثال .

« أو بالأخذ عن الله ، وسؤال الرسول عن صحة الحديث ، ونفى الرسول صحته .

« كما ينزل عيسى برفع كثير من الأحكام الاجتهادية المقررة في الشرع ، فيبين ما كان صلى الله عليه وسلم عليه .

« ولا سيما ما اختلف فيه من الأحكام وتعارض بين الأئمة .

« لأنا نعلم قطعاً أن الحكم لو نزل بالوحي لنزل على أحد الوجهين المتعارضين .

« هذا إذا كان الحكم إلهيـاً بالوحي ، وما عداه مما لم ينزل به الوحي فهو

شرع وتقرير قرر لدفع الحرج عن هذه الأمة ، بمقتضى قوله عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحة » فاتسع فيه » .

* * *

ثم يقول الامام :

[واما قوله عليه الصلاة والسلام « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » فهذا في الخلافة الظاهرة التي لها السيف .

« وإن اتفقا فلا بد من قتل أحدهما .

« بخلاف الخلافة المعنوية فانه لا قتل فيها] .

قال الشارح :

« هذا جواب سؤال أو اعتراض يرد على ما ذكر من أن الخليفة الولي الذي يأخذ الحكم عن الحق إذا خالف الحكم الثابت في الظاهر بالحديث الصحيح إسناده بنقل العدل عن العدل ، وجب على أهل الظاهر والسلطان القائم بأمر الشرع ، أي الخليفة الظاهر قتله بحكم هذا الحديث ، وكيف يصح حكمه ؟

« وجوابه أن هذا في الخلافة الظاهرة التي لها السيف والأخذ بالنقل فقط .

« فإنهما وإن اتفقا في الحكم فلا بد من قتل أحدهما ، ليتحد الحكم .

« وأما هذه الخلافة الحقيقة المعنوية ، فلا تكون في كل عصر إلا لواحد ، كما أن الله واحد ، وهو القطب ، وإنما هو نائبه .

« ولا يظهر الحكم إلا بأمر الله ، ولا يعارضه أحد .

« فإنه إن علم الحكم من عند الله ، ولم يأمره بالإظهار ، فلا يعارض الظاهر .

« وإن أمر فلا يقدر أحد على منعه ، لأنه منصور من الله ، فلا قتل في هذه الخلافة » .

* * *

[وإنما جاء القتل في الخلافة الظاهرة ، وإن لم يكن لذلك الخليفة] .

أي الخليفة الظاهر ...

* * *

[هذا المقام] .

أي : أخذ الحكم عن الله .

* * *

[وهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عدل ، فمن حكم الأصل الذي به تخيل وجود إلهين] .

أي : ما جاء القتل إلا في الخلافة الظاهرة ، ولم يكن للخليفة الظاهري .

« الثاني مقام الأخذ من الله فهو خليفة رسول الله إن كان عادلاً ، فمن حكم الأصل الذي هو وحدة الله تعالى ، جاء قتله لأنه الثاني .

« وكونه ثاني الأول ، يخيل جواز وجود إلهين فهو محال » .

* * *

[و — لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا —

« وإن اتفقا ، فنحن نعلم أنهما لو اختلفا تقديراً لنفذ حكم أحدهما .

« فالنافذ الحكم هو إله على الحقيقة ، والذي لم ينفذ حكمه ليس باله .

« ومن هنا نعلم أن كل حكم ينفذ اليوم في العالم أنه حكم الله ، وإن

خالف الحكم المقرر في الظاهر المسمى شرعاً ، اذ لا ينفذ حكم إلا لله في نفس الأمر .

« لأن الأمر الواقع في العالم انما هو على حكم المشيئة الالهية ، لا على حكم الشرع المقرر ، وإن كان تقريره من المشيئة ، ولذلك نفذ تقريره خاصة ، فان المشيئة ليست لها فيه إلا التقرير لا العمل بما جاء به] .

قال الشارح :

« بيان الملازمة : أنه لو كان فيهما آلهة غير الله كما زعموا ، أو إله آخر غيره ، لكانا إما إلهين بالذات ، أو بأمر زائد عليهما ، فإن كان الثاني لزم افتقارهما في الإلهية إلى الغير ، فلم يكونا إلهين . وإن كان الأول ؛ فإما أن يتخالفا في الايجاد والاعدام أو يتوافقا ، فإن تخالفا لتساويهما في القوة فلا يقع إيجاد ولا إعدام .

« وإن توافقا ، فإما أن ينفذ حكم كل واحد منهما في الآخر ، فلا يكون أحدهما إلهاً لنفوذ حكم الآخر فيه .

« وكذا إن لم ينفذ حكم كل واحد منهما في الآخر لعجز كل منهما ، فإن نفذ حكم أحدهما في الآخر دون العكس فالنافذ الحكم هو الإله دون الآخر .

« ولما كان النافذ الحكم هو الإله دون غيره علمنا أن كل حكم ينفذ اليوم في العالم أنه حكم الله ، وإن خالف الشرع المقرر في الظاهر ، إذ لا ينفذ إلا حكم الله في نفس الأمر .

« لأن كل ما وقع في العالم انما وقع بحكم المشيئة الالهية لا بحكم الشرع .

« فإن تقريره إنما هو بالمشيئة ، ولذلك نفذ تقريره خاصة ، لا العمل به ، إلا ما تتعلق به المشيئة من العمل .

« ولهذا قال بعد قوله — إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله — » .

* * *

ثم يقول الشيخ الأكبر :

[فالمشيئة سلطانها عظيم ولهذا جعلها أبو طالب عرش الذات ، لأنها لذاتها تقتضي الحكم .

« فلا يقع في الوجود شيء ولا يرتفع عنه خارجاً عن المشيئة .

« فان الأمر الالهي اذا خولف هنا بالمسمى معصية فليس إلا الامر بالواسطة لا الأمر التكويني .

« فما خالف الله أحد قط في جميع ما يفعله من حيث أمر المشيئة .

« فوقعت المخالفة من حيث أمر الواسطة ، فافهم] .

قال القاشاني :

« يعني أن حقيقة المشيئة تقتضي الحكم لذاتها ، لأنها نفس الاقتضاء ، والاقتضاء هو تخصيص ما عينه العلم بالحكم ، فيقع ما تعلقت المشيئة به .

« فإن الأمر الإلهي الذي لا راد له ، وحكم الله الذي لا معقب لحكمه ، هو الذي تعلقت المشيئة بوقوعه وجوداً وعدماً .

« فإن لم تقترن المشيئة بوقوع العمل ، واقترن الأمر به لم يقع .

« وإن اقترنت باقتران الأمر به يقع .

« لأن المشيئة إنما اقتضت وقوع الأمر بذلك العمل من المأمور المعين .

« فالمسمى معصية ومخالفة إنما هو باعتبار أمر المكلف والشارع المتوسط .

« لا باعتبار التكوين الذي هو المشيئة .

« فلا يخالف الله في أمره الذي لا واسطة فيه ، فلا رادّ له ولا معقب ، فهذا مقتضى الألوهية » .

* * *

ثم يقول الامام الأكبر :

[وعلى الحقيقة فأمر المشيئة انما يتوجه على ايجاد عين الفعل ، لا على من ظهر على يديه ، فيستحيل أن لا يكون .

« ولكن في هذا المحل الخاص فوقتاً يسمى به مخالفة لأمر الله ، ووقتاً يسمى موافقة وطاعة لأمر الله] .

قال الشارح :

« يعني أن أمر المشيئة إنما يتعلق على الحقيقة بعين الفعل مقتضياً وجوده ، لا بمن ظهر على يديه ، وإنما عدى فعل التوجه بعلى لتضمينه معنى الحكم .

« يعني أن أمر المشيئة يحكم على الفعل بالوجود متوجهاً نحوه ، ولا يحكم على فاعله فيستحيل أن لا يقع .

« ولكن في المحل الخاص الذي يقع الفعل على يده يسمى وقتاً موافقة وطاعة لأمر الله ، وذلك إذا كان الشخص مأموراً بذلك الفعل من جهة الشرع ، ووقتاً مخالفة ومعصية لأمر الله اذا كان منهياً في الشرع عن ذلك الفعل » .

* * *

ثم يقول :

[ويتبعه لسان الحمد والذم على حسب ما يكون] .

أي : حسب الموافقة لأمر الواسطة والمخالفة ، وإن كان العبد في كليهما موافقاً لأمر الإرادة مطيعاً لها » .

وأخيراً يقول الشيخ الأكبر :

[وأما تليين الحديد ، فقلوب قاسية يلينهـــا الزجر والوعيد تليين النار الحديد .

« وإنما الصعب قلوب أشد قساوة من الحجارة .

« فان الحجارة تكسرها وتكلسها النار ولا تلينها] .

ثم يقول :

[وما الان الحديد له إلا لعمل الدروع الواقية تنبيهاً من الله ، أن لا يتقي الشيء إلا بنفسه .

« فان الدروع يتقي بهـــا السنان والسيف والسكين والنصل ، فاتقيت الحديد بالحديد .

« فجاء الشرع المحمدي بأعوذ بك منك .

فافهم .

« هذا روح تليين الحديد .

« فهو المنتقم الرحيم .

« والله الموفق] .

قال القاشاني :

« أي انما ألان لداود الحديد لعمل الدروع الواقية من الحديد ، تنبيهاً له على أنه لا يتقي الله إلا به .

« كما قال عليه الصلاة والسلام « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك » .

« فصورة تليين الحديد على يديه ، صورة ما أعطاه الله تعالى من قوة تليينه للقلوب السامعة لكلامه ومزاميره ، القابلة لمعانيها .

« كما أن تسبيح الجبال والطير ، وترجيعها إياه معه ، صورة تسبيحه في جوارحه وقواه .

« حتى تشكلت بالهيئة التنزيهية .

« وانخرطت بالكلية في سلك التقديس والتوحيد .

« فتليين القلوب روح تليين الحديد .

« والتوحيد الذاتي في « أعوذ بك منك » روح اتقاء الحديد بالنار .

« فتوحيد القلوب يسبب لها روح الروح .

« فإنها اذا لانت وسمت الحق .

« فعرفت أن المنتقم هو الرحيم » .

* * *

هذا ما ذهب اليه ابن العربي في حقيقة داوود ...

وما ذهب اليه القاشاني شرحاً على أقوال الشيخ الأكبر ...

وأحب أن أنبه هنا ... ان ما قاله ابن العربي ... هو أفق رفيع ... قد لا يفهمه كل الناس ...

وإنما أثبتناه هنـــا ... لنلتقط منه ... اشارات إلى بعض عجائب الشخصية وأسرارها ...

فإن شئت فافهم ... كما يقول ابن العربي ...

وإن شئت فلا تفهم !..

الملك ... داوود ...
يقضي على الثورة ...!؟

طــال ...

سبحنا في آفاق داوود العليا ...

والآن نعود الى بلايا الدنيا ...

نعود الى عاصفة عاتية ... هبَّت على المَلك الراسخ ... وكادت تقضي على مُلكه ... وتنزعه من العرش نزعاً !..

فما هي أحداث تلك الفتنة التي تعرض لها المَلك ؟!.

مختصر أحداثها ... أن « أبشالوم » ابن داوود ... قاد ثورة مسلحة ... ضد أبيه !..

« هو ذا ابني الذي خرج من أحشائي يطلب نفسي » ؟!.

وانشق الشعب فريقين ...

أغلبية مع أبشالوم ... ابن الملك الشرعي ...

وصفّ أبشالوم قواته للمعركة ...

وصفّ داوود ... جبار المعارك ... قواته ... للمعركة ...

إلا أنه أصدر أوامره ... ألا يقتلوا أبشالوم ... ولو ظفروا به ...

« واوصى المَلك ... قائلاً ... ترفقوا لي بالفتى أبشالوم .

« وسمع جميع الشعب حين أوصى الملك جميع الرؤساء بأبشالوم » !..

ووقعت المعركة الرهيبة ...

ملك يقاتل ابنه ...

وابن يقاتل أباه ...

انها فتنة ... ولكنه المُلك !..

والمُلك هو الفتنة الكبرى !.:

وانتصر داوود ...

« وكانت هناك مقتلة عظيمة في ذلك اليوم .

« قتل عشرون ألفاً .

« وكان القتال هناك منتشراً على وجه كل الأرض .

« وزاد الذين أكلهم الوَعْر من الشعب على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم » !..

الضحايا بالآلاف ...

القتلى بالألوف !..

إلا أن مصرع قائد الثورة ... كان أبشع ... رغم أوامر الملك الصريحة !..

« كان أبشالوم راكباً على بَغل .

« فدخل البغل تحت أغصان البُطمة العظيمة الملتفة .

« فتعلق رأسه بالبطمة .

« وعُلّق بين السماء والأرض .

« والبغل الذي تحته مرّ ...

فقال يُوآب إني لا أصبر هكذا أمامك . فأخذ ثلاثة سهام بيده ونشبها في قلب ابشالوم ، وهو بعد حي في قلب البُطمة .

« واحاط بهـــا عشرة غلمان حاملو سلاح يُو آب وضربوا أبشالوم واماتوه » !..

هكذا كان مصرع قائد الثورة ...

مصرع الابن ... الذي ثار على أبيه ... الملك النبي !..

وجاءوا الى الملك داوود ... يبشرونه بالنصر الساحق على أعدائه ...

فقال الملك :

« أسلامٌ للفتى أبشالوم » ؟!

فلما أنبأوه ... ان قد قُتل ... كانت صدمة ..

« فانزعج الملك ...

« وكان يبكي ويقول هكذا وهو يتمشى :

« يا ابني أبشالوم يا ابني .

« يا ابني أبشالوم .

« يا ليتني مُتُّ عوضاً عنك .

« يا أبشالوم ابني .

« يا ابني » !..

ان الملك يتفطر ...

ولكنه المُلك ... وهذا بلاؤه !..

وانتصر داوود ...

واستقر العرش ...

وكانت فتنة !..

ورث . . . سليمان . . .
داوود ...؟!

الناموس ...

يسري ... ويجري ... في الآدميين ... مهما كانوا ... في أعلى عليين ... أو في أسفل سافلين ...

« إنك ميّت وإنهم ميتون » .

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخُلد .

أفإن مت فهم الخالدون » ؟!.

ها هو الملك ... النبي ... يسعى اليه الموت ...

« وشاخ الملك داود .

تقدّم في الأيام .

« وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدْفأ » !..

إنه الناموس ...

« كل نفس ذائقة الموت » !..

ولكن هناك مملكة يتحتم تنظيم شئونهـــا ... قبل أن يفارق داوود هذه الحياة ...

« وقال الملك داود : ادعُ لي صادوق الكاهن ، وناثان النبيّ ...

« فدخلوا أمام الملك .

« فقال الملك لهم : خذوا معكم عبيد سيدكم .

« وأركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي .

« وانزلوا به إلى جيحون .

« وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبيّ مَلكاً ...

« واضربوا بالبوق .

« وقولوا : ليحيى الملك سليمان .

« وتصعدون وراءه .

« فيأتي ويجلس على كرسييّ .

« وهو يملك عوضاً عنّي ... »

لقد حسم داوود الفتنة ... وحدّد الملك الذي يملك بعده ...

« وأركبوا سليمان على بغلة المَلك داود .

« وذهبوا به إلى جيحون ...

« وضربوا بالبوق .

« وقال جميع الشعب :

« ليحْيى المَلك سليمان .

« وصعد جميع الشعب وراءه .

« وكان الشعب يضربون بالناي ويفرحون فرحاً عظيماً حتى انشقت الأرض من أصواتهم » !..

فرغ داوود ... من اختيار خليفته ...

وأحس الملك بقرب وفاته ... فاستدعى سليمان وجعل يوصيه :

« أنا ذاهب في طريق الأرض كلها .

« فتشدّد وكن رجلاً .

« احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه .

« وصاياه وأحكامه وشهاداته .

« كما هو مكتوب في شريعة موسى .

« لكي تفلح في كل ما تفعل وحيثما توجهت » .

نبيّ ... مَلِك ...

يوصي ... نبيّا ... مَلِكا !..

وأخيراً ... وسقط الفارس ... ومات داوود ...

وورث سليمان داوود » !..

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه بدائع... روائع... الشخصية الجليلة... الجميلة...

شخصية .. النبي .. الملك... داوود ؟!

فيه... اسرار... انوار... « ولقد آتينا داوود منا فضلاً... يا جبال أوبي معه... والطير .. والنا له الحديد . » !!!